2276
.99803
.338
1968

Princeton University Library
32101 071971046

كامل زهيري

الغاضبون

مكتبة النهضة بغداد

الغاضبون

Zuhayrī, Kāmil

كامل زهيري

الغاضبون

منشورات ـ مكتبة النهضة ـ بغداد

(RECAP*
2276
.99803
.338
1968

مقدمة

عن السلطان والانسان

أعظم ما في الشرائح النابهة من الشعراء والادباء والمفكرين والفنانين أنهم يطيرون بلا خوف ، لانهم يتململون ، ويقلقون ويحلقون ويغضبون ويرفضون ويجددون ٠

وأعظم ما في وجدان الشاعر هو الملل ، وأصدق ما في الفكر هو القلق ٠ فالذي يحير هو الذي يحرك ٠ وبداية الحركة هي الحيرة ٠ وتحليل الشيء هو تفسيره ٠ وتفسير الشيء هو الخطوة الاولى لتغييره ٠ وبداية الفلسفة هي الدهشة ٠ وما يثير الدهشة هو غير المألوف ٠٠ هو الجديد الذي قد يبدو أول الامر غريبا ٠

ويمكن أن يسمى هذا الادب الذي أقدمهفي هذهالصفحات بأدب الاحتجاج ، أو الادب الغاضب ، أو المغضوب عليه ، لانه

أدب رافض ـ متململ ـ ملول ، قلق مقلق متفجر متطاير الشظايا ، بعضها قد يصيب ، وبعضها لا يخيب لانه ينبّه .. الوعي والوجدان .

ولو عبرت الفكر الانساني ـ بنظرة طائر ـ لوجدت أن الحياة الفكرية حتى في أوج ازدهارها لا تكاد تستقر حتى تتغير ، فلكل جيل كاتبه .. أو شاعره ، أديبه ومفكره ، وبعد هؤلاء يأتي جيل جديد ومفكر وشاعر وأديب وفنان .

وهذا الذي أقدمه في هذا الكتاب هو لمحات طائرة ـ عبر أجيال عديدة من شخصيات ومذاهب ، قرأت عنها ، أو عرفتها من بين هؤلاء الذين تململوا ، ورفضوا وغضبوا فغضب عليهم ..

وبعض هذه الافكار والمذاهب غريب ، تعلّق بالصعب أو المحال ، فاعتبر احلاما، وبعضها كان ضارا أشد الضرر، أتى بالوبال على اصحابه ، ولكنه أفاد من أتى بعدهم ـ لانه على الاقل ـ أثار سؤالا أو طرح مشكلة ..

خذ مثلا تلك المذاهب التي اثارت في القرن الماضي ، مشكلة السلطة والحرية ودخلت في صراعات محمومة ومنازعات محتقنة مع بقية المذاهب . لقد انطفأت جميعها ، وانفض عنها أتباعها .. لكنها ما زالت في تاريخ المغامرات الفكرية الانسانية تشير الى مشكلة باقية ومطروحة على ضمير المفكرين حتى الآن ، هي مشكلة السلطان والانسان ..

ولسوف تكتشف من قراءة هذه اللوحات السريعة ـ المبسطة جدا ـ ان كثيرا من الافكار ـ أو الهموم الفكرية ـ تظهر في جيل ، ثم تختفي ، لكنها تعود من جديد في طلاء جديد ..

مثلا ، هذا الفيلسوف الذي عرفنـــاه أخيرا : هـربرت ماركوز ، الذي سموه فيـــلسوف الطلبـة الغـاضبين ، هذا العجوز الذي كان يمكن أن ينزوي حتى آخر حياته بمؤلفـاته في احدى الجامعات الامريكية الصغرى ، لقد انتقلت أفكـاره فجاة عبر المحيط ، وانتشرت في أوربا ـ كنيران الحطب ـ بين الطلاب والشباب ٠

أليست هذه الافكار نفسها احياء لافكار ومبادىء كان يدعو اليها جيل السرياليين الاوربيين في عـام ١٩١٤ ، حين تخيلوا امكان التوفيق بين أفكار فـرويد ومـاركس ، لتفسير الانسان وتغييره ؟!

وبعض أفكار جان بول سارتر٠٠ التي لمعت وانتشرت في أعقاب الحرب العالمية الثـانية ، أليست احيـاء وانعاشا وتبسيطا وتجديدا لافكار هوسيرل وهيدجر الالمانيين ، والتي كان يمكن أن تنزوي بين ضفاف كتبهم في مكتبات الجامعات الالمانية بعد الحرب العالمية الاولى ؟!٠

وبعـد ٠٠

فلقد يجد القارىء بعض هذه الافكار ، أو كثيرا منهـا، خاطئة وحمقاء لكنني قصدت أن أبسط بقدر الامكان ، تـلك المذاهب الغريبة ، وهذا الادب الغـاضب المغضوب عليه ، وان ألقي بعض الضوء على الشخصيات الادبية والفنية ، وذلـك حتى يتعود القارىء على مقـارنة المذاهب الغريبة ومتابعـة الشخصيات المجددة ٠٠

وأردت من تقديم الجديد الجدير ، أو القديم الغريب أن يتعود القارىء على الجديد في الفكر ، غير المألوف في الفن٠

ويستطيع القارىء بعد هذه الرحلة الاستكشافية أن يهبط الى الارض ويعود الى ما تعود عليـــه وأمن اليـــه من أفكـار ومبادىء ، أو يستطيع أن يستأنف الطيران الى الجديد البعيد، فيعرف أفكار المفكرين ، بالتعرف على أشواقهم وأحلامهم، لأن الاشواق والاحلام هي الطلائع التي تسبق احتلال المواقع ٠

والغد لا يولد غدا ، ولا يولد اليوم ٠

ولكنه ولد بالأمس ٠

لان احلام الامس هي حقائق الغد القريب ٠٠ او البعيد٠

كامل زهيري

مقدمة الطبعة الثانية

« الذين تحبهم هم الذين يملأون الاماكن والحيطان ... والشوارع . وبعدما يذهبون تصبح الاماكن والحيطان والشوارع من بعدهم مجرد حجارة مرصوفة او مصفوفة ... ملساء خرساء مثل حيطان السجون » .

كامل زهيري ـ القاهرة ١٩٦٨

التكنولوجيا هي حلم المتخلفين
ولعنة المتقدمين ..

الارهاب والتكنولوجيا

كأن أيام الشباب تعطى لنا على سبيـــل المـذاق فقط.
وكأنها لا تحسب من العمر ... كالبائع الذي يعطينا قطعة من باب التجربة مجانا . ولا نحس او نحسب ، انها محسوبة في الميزان .

فرنسا

عندي ، هي باريس· وباريس هي الحي اللاتيني· وباريس هي شباب فرنسا ، والحي اللاتيني ـ بلا منازع ـ هو هذا الشباب ·

والحي اللاتيني من أقدم احياء باريس · أقدم من حي الباستيل وحي الجمهورية· ولكن الحي اللاتيني· يتميز عنهما ، بأنه قديم وشاب ·· لا يشيب ·

لانه الحي الذي تزدحم فيه الجامعات ، والمدارس العليا، والمكتبات القديمة العامة ·

ولعل هذا هو سر شبابه الدائم ، لانه يستقبل الشباب طلابا ، ويودعهم رجالا ·

وقد تعودت ، كلما سنحت لي فرصة « ذهبية » ، ولو ليومين ، أن أمر بباريس · وان أمضي أكثر وقتي في هذا الحي بالذات ·

ومنذ عامين مررت مرورا عابرا بباريس · فذهبت مستسلما عن رضا ، كأن سحرا يقودني ، الى الحي العتيق الشاب ·

فروعة هذا الحي انه قديم جدا ، وشاب جدا · عتيق وثوري ، وفي هذا المزيج الغريب سحر خاص ·

ففي قلبه تتربع أقدم جامعة أوربية ، السوربون ·

وفيه تتزاحم في قلبي موجات من الذكريات ذكرى « مغامرات » عقلية وعاطفية ·

فلقد أعطيت هذا الحي ـ راضيا قلبي عاريا ، فشرب منه حتى ارتوى واكتفى · منذ عشرين عاما ·

وهذا السوربون نفسه معجزة معمارية ٠

ابوابه عتيقة ٠

حوشه يحتفظ بطابع القـــرون الوسطى ، بلاط أبيـض صغير ، وحيطان سوداء ، أقرب الى أحواش الكنائس ٠

والسوربون يقع بين شـــارع ضيـق ينتهي الى ميدان صغير ، فيه تمثال لأوجست كونت ، ثم شـــارع طـويل جدا، تكتشف أنه أطول شارع في باريس ـ ومن أقدمها ٠ لأنه يبدأ من تحت أقدام كنيسة نوتردام الهائلة ، ويمتد الى نهايةباريس من ناحية الجنوب ٠ وقد أطلق عليه اسم القديس جاك، الذي يرقد مثواه في اسبانيا ، وكانت قوافل الحجاج في القـرون انوسطى ـ التي تحج في قوافل خوفا من الطريق ـ فتسيـر جنوبا ، وتعبر باريس ، ثم تخترق جنوب فرنسا الغربي ٠ ثم تعبر جبال البرانس ، لتدخل الى اسبانيا حيث مرقد القديس٠

وهكذا ، كلما وصـــلت الى الحي تـــوالت عـلى قلبي الذكريات ٠

ذكريات أعوام نشيطة مزدحمة ، ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ حياة تموج بالمنازعات والقلق ٠

سارتر : كان لا يزال يرتقي الى القمة ٠ فيلسوفا للعبث والحـرية ٠ لكنـه المفكـر الـذي انتشل الفرنسيين من مرارة الهزيمة ، وصرخ صرخته الوجـــودية ، التي أصبحت بعده شعارا ذائعا :

ـ « الانسان محكوم عليه بالحرية ٠ وهو يصنع حريتـه بنفسه ٠ والانسان هو ما يفعله »٠

وفي هذه الفترة العصيبة الخصبة ـ اعقاب حرب وهزيمة ومقاومة ـ تعلمت من هذا الحي ٠٠ التفرقة الدقيقة بين المعاني ٠

فالفرنسيون يعشقون اللغة ، ويعشقون الاشتقاقات ٠ ويتذوقونها ، كما يتذوقون لذائذ الحياة والجسد ٠

ومنذ هذه الايام ، كانت تدق في ذهني ، كما تدق في سمعي ساعة السوربون ٠

كانت تدق تفرقة بين لفظين ، كتبهما سارتر ٠

ان هناك فرقا بين اليأس وفقدان الامل ٠

نعم ، فالفارق دقيق ، لكنه مهم ٠

فاليأس ظلمة واستسلام ٠

ولكن ٠٠ قد يفقد الانسان الامل ، ويظل يناضل ويرفض اليأس ٠

فارق دقيق ، كما ترى ٠ ابتكره الوجوديون ٠

(ولكنه أراح الفرنسيين بعد الهزيمة ، واستنهض همتهم للمقاومة) ٠

لقد فقدوا الامل ٠ ولكنهم رفضوا اليأس ٠

والفرنسيون ـ كما قلت ـ مهرة واخصائيون في استخلاص المعاني ، واشتقاقاتها ٠

اشتقاق آخر ، لا انساه من أيام باريس ، منذ عشرين عاما ٠

الفقراء عندهم يقولون : « نحن فقراء ، ولسنا بؤساء »٠

فالفقر شيء ٠ والبؤس شيء آخر ٠

الفقر حالة اقتصادية · لكن البؤس حالة نفسية ·

الفقير ، اذا استسلم اصبح يائسا ، ثم بائسا ·

والفقر بئر حائطها اليأس ، وقاعها البؤس ·

وهكذا ، فالانسان قد يفقد الامل ، ولكن يرفض ان يكون يائسا ·

وقد يكون فقيرا ولكنه يرفض ان يكون بائسا ·

وفي هذا الحي ـ المليء بالحركة الماجنة والساخطة والغاضبة ـ لم اهتم كثيرا ـ لحسن حظي ـ بتلك المبالغات التي نقلتها الجرائد ، وتناقلتها الالسن عن الوجودية ، وعن حياتهم الرثة ، ومعيشتهم في الكهوف الموسيقية ، والحانات الضيقة الخانقة ·

فقد كان السوربون منارا هاديا كشف لي ان الوجودية لبست موضة ، أو تقليعة ، كما يقال ·

انها فلسفة جادة ، أو على الاقل ، اجتهاد فكري جدير بالدراسة والمتابعة ·

ولذلك حرصت أن أذهب الى مدرجات السوربون ، حيث استمع الى رجال لم أعد أنساهم · حفروا حفرا في ذاكرتي ، بقاماتهم ، وأصواتهم ، وهمساتهم ·

جان فال : العجوز قصير القامة · رقيق العظام · دقيق الملامح ، شعره الابيض كالثلج ، صوته مهتز ، لكن ذاكرته عجيبة ·

انه يتنقل بالالفي طالب أو مستمع ـ فليس على السوربون حرس أو حجاب ـ من بذور الوجودية عند الاغريق، ويمر بالفلسفة الالمانية ، لينتهي بالفلسفة المعاصرة ·

وكان مدرج « جيزو » يمتلىء عن آخره بالشبان والشابات · تطل على الجميع ، لوحات الحيطان من عصر النهضة ، وفيها تقديس ـ بالالوان ـ للفلاسفة الاغريق ، أو الاساطير اليونانية ·

جو مسرحي هائل ! يجعلك « تمثل » الثقافة وقد تصبح مثقفا في النهاية ، او على الاقل مشغوفا محبا للثقافة والفكر·

وفي مدرج آخر ، كان ميرلو بونتي · شاب أستاذ · وجه خشبي · طويل عريض · صوته فحل عميق · جسم رياضي · قامة شامخة · أنيق بلا مبالغة · تحسبه قبل أن يتكلم ممثلا يليق ، ويتألق ، على الشاشة البيضاء · فاذا تكلم ·· أحسست عمقا غريبا · أمواج المحيط تتردد بين صخور الجبال · فاذا تابعت الحديث ، لفحك شيء من العذاب في صوته · فتعود الى النظر اليه ، لتدرك هذا العناء ، أو المضض في عينيه اللامعتين الضيقتين ·

وميرلو بونتي كان صديق سارتر وسيمون دي بوفوار · بل كان في ذلك الوقت مديرا لمجلة « العصور الحديثة »· وكانت المجلة ما زالت ناشئة وقوية · لكنهما تخاصما ، وانشق عليهما ، وتبادلوا ـ ثلاثتهم ـ الاتهامات « الفلسفية » حول قضية الشيوعية والستالينية ·

وعلى بعد غير كبير من هذين المدرجين ، كان يقف رجل آخر ، ينحني قليلا تحت وطأة التجربة ، لا السن ، ما زلت اذكره ، فقد احببته ايضا ، لانه كان يدرس علم الاجتماع بطريقة جديدة ·

كان جورج جورفتش ـ وهو من أصل روسي ، يتكلم الفرنسية بلهجة سلافية · جاء باريس سنة ١٩٣٠ ، وترجم

الى الفرنسية بعض كتب هيدجر وهوسيرل ، عن الوجودية ، ولا يزال سارتر طالبا في الايكول نورمال · ثم هاجر الى أمريكا ليدرس في جامعاتها ، ثم عاد الى باريس ليحتل مركز استاذ علم الاجتماع الذي احتله من قبله دوركهايم وأوجست كونت (وقد مات الاخير بحسرة عدم الاعتراف له بمركز الاستاذية في الكوليج دي فرانس) ·

وكنت ، حين أتعب ، لصعوبة ما أسمع ، أو عمقه ، أتسلل الى مدرج أستاذ كان يشبه فيتوريو دي سيكا ويوسف وهبي · قامة مهيبة · شعر فضي · اناقة بالغة · ثياب سوداء ونحن في الصباح · ايماءات مسرحية · صوت أقرب الى أصوات مغني الاوبرا · وكان يحول المدرج الى مسرح · وله الحق ، فقد كان يدرس علم الجمال ·

كان اسمه موسيقيا : اتيين سوريو ·

ومن هؤلاء الاربعة الذين كانوا ـ في هذه الفترة ـ يملأون السوربون جدية ونشاطا ، عرفت متعة السمع ، ورهبة الدرس ، واستغراقة المتصوف « حتى في صدر الشباب » ·

ولو شئت أن أستمر في هذه الذكريات لأطلت ، وخرجت عن الموضوع ·

ولكنني تذكرتهم جميعا ، وأنا أتنقل بين شوارع الحي اللاتيني في الليل وحيدا ·

كان هؤلاء الاربعة قد ماتوا جميعا ·

حتى هذا الشاب ، الطويل القامة ، العميق الصوت ، الرياضي الجسد ، ميرلو بونتي ، مات فجأة ·

وأصبحت أمر على السوربون ، كأنني أمر على الذكريات ٠

ان الذين نحبهم هم الذين يملأون الاماكن ، والحيطان ٠٠ والشوارع ٠

وبعدهم تصبح الاماكن والحيطان والشوارع مجرد حجارة مرصوفة ، أو مصفوفة ٠ جرداء ملساء ، مثل حيطان السجون !

ولم يتركني الحي اللاتيني ـ في المرة الاخيرة ـ وحيدا ٠ لانه لم يكف عن الازيز النشيط ٠ فالساعة ٠٠ الواحدة بعد منتصف الليل ٠ وبولفار سان ميشيل يمتلىء بالعشرات يصعدون ويهبطون ٠ والمحال لم تقفل ٠ اذ تظلم الجامعة ، وتضاء المطاعم ، والمقاهي ٠

لكني أحسست شيئا غريبا لم أستطع اكتشافه ٠

ليس بالحي اللاتيني شارع لم يخلده كاتب أو فنان أو مفكر ٠

سان جاك ـ من ورائنا ـ كان يعيش فيه الكونت كلود هدني مابتزار دي سان سيمون ٠ يا له من اسم! لأول اشتراكي فرنسي !

وهذا الشارع الصغير جدا ، الذي ينشق عنه ، شارع فيانتين ، كان يسكن فيه فكتور هوجو ، وله قصيدة فيه عن طفولته وصباه في هذا الشارع ، لانه كان يدرس في احدى مدارسه الابتدائية ٠

شارع جي لوساك ، كان مقرا لجمعية الفلسفة الوضعية

ـ ولا يزال هذا المقر موجودا ـ والتي أسسها **أوجست كونت** منذ أكثر من مئة عام ..

وذلك الشارع ـ على بعد خطوات ـ يصب في ميدان فيه نافورة بيضاء رائعة ـ مضاءة بالليل ، يطل على حدائق اللوكسمبورج ، ويصعد الى البانيتون ـ او مقبرة العظماء ـ ويصل الى مكتبة سان جنيفييف العتيقة . مكتبة تشبه مكتبات القرون الوسطى . حيطانها مغطاة من الارض حتى السقف بالكتب القديمة . وما زالت الكتب ترفع من المخازن في الدور الارضي الى الادوار العليا بأدراج حديدية ، لهـا جنازير ، وصرير، يقطع الصمت، لكن الجميع تعودوا على هذا الصوت، وبعضهم يلتفت له مرحبا . لأنه يعلن أن دفعة جديدة من الكتب النادرة قد وصلت ، وقد يكون بينها ما ينتظره ، فينزل على كتابه القديم النادر كما ينزل الجائع على مائدة حافلة ..

وهذه المكتبة العريقة العتيقة هي المكتبة التي ارتوى منها **طه حسين ، وزوجته** ، لأن بها مجموعة نـادرة مـن الكتب الشرقية والاسلامية ، وقد قرأ فيها طـه حسين كتب أستاذه كزانوفا ، قبل أن يعد رسالة الدكتوراه عن **ابن خلدون** ! .. وأحسست بالتعب ..

ودخلت أحد المقاهي الليلية ، باهرة الضوء ، يتصدرها بنك ، وراءه جرسون يشمر عن ساعديه ـ وجرسونات باريس يحبون الرياضة والنساء ـ واخترت جلستي في مكان هادىء .

ـ سأشغل وحدتي ، بوجبة .. بالمضع والشرب .

وطلبت قطعة من اللحم ، وأنا أحاور نفسي فـي شيء آخـر ..

ـ ان الحي لم يتغير ..

انه نفس الصعود والهبوط في بولفار سان ميشيل ..

نفس السهر بلا مبالاة ..

نفس الاقبال على الحياة ..

كأن أيام الشباب تعطى لك على سبيل التجربة فقط . وكأنها لا تحسب من العمر .. كالبائع الذي يعطيك قطعة من باب التذوق مجانا . لا تحس أنها محسوبة في الميزان .

لكن صوتا ـ وأنا في غاية السعادة والتعب ـ كان يهمس في أذني :

ـ ان شيئا ما قد تغير في الحي اللاتيني ..

وصوت آخر يعاكسه :

ـ لا شيء قد تغير على الاطلاق ..

نفس القبلات في المترو . على شاطىء السين . تحت مصابيح الشوارع . الى جوار الابواب . على النواصي . نفس المكتبات ـ المضاءة ليلا ـ والتي تعرض الكتب الحديثة ، كأنها مخابز تعرض خبزا خارجا لتوه من الفرن . نفس « الجي بوكس » ، والاقبال على النبيذ ، واتلاف الصحة ، والاسراف في السهر ..

الحي لم يتغير كما ترى .

وقال صوت آخر :

ـ انها وجوه شابة فعلا . وضحكات شابة فعلا ..

ولكنها ليست الوجوه الشابة التي عرفتها فيما مضى ، وليست الضحكات التي سمعتها .

هذا هو الفرق .

انه شباب آخر ، لأنه جيل آخر ..

وقال الصوت مؤنبا :

ـ كان عليك أن تذهب الى حي آخر ، غير حي الشباب ٠

ألم تدرك حتى الآن ، أن أحياء باريس مقسمة جغرافيا، بالنسبة لموقعها من النهر وهي أيضا مقسمة من ناحية العمر ٠

ان ضفة اليمين ، التي تقع فيها الاوبرا والمادلين والبورصة والاحياء الارستقراطية هي الاحياء التي يسكنها الرجال والكبار وحتى مونمارتر ومونبارس ، نادرا ما تجد فيها شابا ، بينما الحي اللاتيني هو حي الشباب دائما ٠

وجاء الجرسون بطبق اللحم ٠ وأخذت أقضم الخبز ، وهم في فرنسا يأكلون كما نأكل كثيرا منه ـ ولكنني أحسست أن شكلي غريب تحت الضوء الشديد ٠٠

فأنا الوحيد الذي يستعمل الشوكة والسكين ٠٠

بينما جيراني لا يقضمون غير السندويشات في هدوء٠٠

والتفت الى جانبي ، فاذا بفتاة شابة ، تتفجر جمالا ، وامتلاء ، وصحة ، والى جوارها شاب لا تكاد تميزه عنها ، لأن شعره ناعم مسترسل ٠٠

وكانا يتضاحكان ويتهامسان فيما يشبه الخلاعة ٠٠

وبدأت أرتبك ٠٠

وبسرعة عجيبة ، كانت يدي تقذف بالاكل الى فمي ٠٠

لأنني لاحظت أن الشاب والشابة لم يطلبا غير « قهوة سوداء » ٠

وكانا يحصيان الفرنكات الفكة فيما بينهما ٠ فالفتاة تفتح حقيبتها « الانيقة » ، والفتى يبحث في جيوبه ٠٠

ثم جمعا شجاعتهما ـ بظرف ـ وطلبا مني أن أمد اليهما الطبق الذي توجد به قطع السكر ..

وجلسا سعيدين يقضمان قطع السكر .. بأناقة .

وكان هذا ايذانا لي بأن انتهي فورا من أكلتي المتواضعة، وأن أضع الشوكة والسكين جانبا . فالـــى جواري جاران لطيفان شابان يتضوران جوعا ..

واستأذنتهما بلطف لأدعوهما الى قهوة سوداء أخرى .

وكانت فرصة لكي أحدث هذا الجيل المسترسل الشعر ، الذي يملأ الحي اللاتيني ..

وتبينت أن الفتى يدرس الفلسفة في السوربون . وان الفتاة تدرس الفنون الجميلة (وبعض الدراسات شكلية ، اذ تلتحق الفتاة باحدى الكليات لكـي تقنـع اهلها بالسماح لها بمغادرة الاقاليم ، والذهاب الى باريس) ..

وقلت لهما انني كنت أعيش فـي الحي اللاتيني مدة ، ولخصت لهما حياتي باختصار حتى أستطيع الحديث بحرية..

وسرعان ما نسيت المقاصيص الطويلة التي تسترسل من شعر الفتى ، وهو يناقشني بحرية ، وروح فكهة قائلا : انه لا يؤمن بديجول ..

قلت : اذن تعطف على الحزب الشيوعي ..

قال : لقد شاخ الحزب الشيوعي ! انه حزب الثوريين من الاجداد ...

قلت : اذن سارتر ..

قال : راحت عليه ..

قلت : اذن من ؟ ..

قال : شي جيفارا ..

قلت : لماذا ؟ ..

قال : ثوري يرفض الاستفادة من الثورة .. والثورة عطاء وليست أخذا ..

قلت : ومن أيضا ؟ ..

قال : ماو ..

قلت : ومن أيضا ؟ ..

قال : هو شي منه ؟ ..

قلت : ألا تلاحظ أن الجميع ليسوا من أوروبا ؟ ..

قال : لا . هناك ماركوز ..

قلت : من ؟..

قال : هربرت ماركوز . امريكي أصله ألماني يكتب بالالمانية والانجليزية ..

قلت : لا أعرفه ، ولكنه أمريكي كما تقول ..

ألم يعد أحد من المفكرين في أوربا ؟ ..

قال : فلتحترق ..

قلت : والسوربون ..

قال : طظ ..

(وله كلمات أخرى أكثر اهانة من طظ) ..

وانتقل الحديث الى الفن ، فتحدثت الفتاة ، وعدت أسأل عن « ماركوز » هذا الذي فتن به الفتى فقال :

ـ انه صعب جدا ، ولكنه مثير جدا ..

ملحوظة : هذا ملخص للحديث الذي استمر ساعتين · لم يكن ينقطع الا لتبادل الفتى والفتاة القبلات · وكانت الفتاة تبادله القبلات السريعة ، والهادئة أيضا ـ وكأنها تعلن مرافقتها كلما أعلن رأيه عن ديجول ، أو سارتر ، أو جيفارا ، أو السوربون ، أو هذا المجهول ماركوز · وطالت القبلات حين تحدث عن ماركوز ··

وحين حدثت أحداث مايو ١٩٦٨ في باريس ، انتشرت النيران والتدمير في شوارع الحي اللاتيني ، وكان سان جاك وجي لوساك ، وشارع المدارس ، وشارع سوفلوه ، أماكن المتاريس الغاضبة ، والشعارات اللاذعة ، ومخابىء لصنع قنابل مولوتوف · وفجأة لمع ـ في العالم ـ اسم هذا الفيلسوف الذي بلغ السبعين ، وظل مجهولا ، حتى أدركته حركة الطلبة ـ التي انتشرت في اوربا ـ فاذا به يصبح أشهر فيلسوف هذه الايام ، واذا بالمطابع تنشر له مؤلفاته العديدة ، وأخطرها هو هذا الكتاب : « الرجل ذو البعد الواحد » ··

والكتاب يفسر ماذا وراء حركة الطلبة المتمردين ، وكيف يغذي هذا الفيلسوف قلق الطلبة الاوربيين وغضبهم ، وسخطهم ·

وحين قرأت هذا الكتاب الاخير ، وجدت صعوبة شديدة، لأن لغته فلسفية ـ وهو أقل تعقيدا من كتب سارتر · ولكنه في بعض الصفحات يفوقها تعقيدا ··

والرجل ـ كما يبدو ـ وهو في السبعين كان يكتب لا لينقرأ ، ولا ليكون لنفسه مذهبا ، ولا جماعة من الانصار ··

بل لقد لاحظوا ان كل أساتذة الجامعات الامريكية ـ وخاصة في العلوم السياسية والاجتماعية ـ تكون لهم شلل من طلبتهم ، ولكن هذا الاستاذ ليس له أحد ·· من الحواريين أو الاتباع ·

والغريب أنه أصبح فجأة كاتب الشباب الغاضب في أوربا بأسرها ..

وهذه دار النشر ـ ايدسيون دي مينويه ـ أي دار نشر منتصف الليل ، التي تنشر أرقى الدراسات اليسارية والانسانية ، هي التي تتولى ترجمة أعماله الى الفرنسية ..

وتستطيع أن تستنتج منابعه الفكرية الاصلية ، لأنه ترك ألمانيا في عام ١٩٣٣ ، أي في أيام النازية ، وفي نفس السنة نشر كتابا بالالمانية عن هيجل ، ثم دراسة عن العائلة والسلطة، ثم كتابا عن الثقافة والمجتمع ، كما كتب بالانجليزية عدة كتب منها كتاب عن الثورة والعقل ، وكتاب عن هيجل والنظريات الاجتماعية ، ثم كتاب عن الجنس والحضارة ، وكتاب عن فرويد ، وكتاب عن الماركسية السوفياتية ، وأخيرا هذا الكتاب:

ـ الرجل ذو الاتجاه الواحد ، أو البعد الواحد ..

ومن الواضح أن هربرت ماركوز يبدأ بدراسة هيجل ، ونقد ماركس ، ودراسة فرويد ، ويهتم بدور السلطة وتأثيرها على الحرية .. وكل هذه اهتمامات لا يستطيع أن ينجو منها مثقف في أوربا والفكر الاوربي ..

لأن هيجل وماركس وفرويد قلبوا نظرة الانسان بل الطبيعة الانسانية ، والتاريخ الانساني ، وعلم النفس ..

فهل يريد ماركوز أن يمزج ويوفق بين ماركس وفرويد ؟

ـ انها محاولة جديدة ..

فلقد سبق فيما بين الحربين أن ظهرت الدادية والسوريالية ، وكان انجيلها كتب ماركس وكتب فرويد ..

ولكن الدادية والسوريالية كان ابطالها من الشعراء مثل اندريه بريتون ، وبول ايلوار ، واراجون ، وروبير ديسنوس وهنري ميشو ، ومن الرسامين سلفادور دالي ، وماكس أرنيست وغيرهم ...

وكانت السوريالية ثورة على الحرب ، والفوضى الرأسمالية ، والسلطة في الدولة ، والاسرة، ودعوة الى الحب المباح ، بل ان اندريه بريتون هو صاحب نظرية الحب المجنون، أو أعجوبة ومعجزات الحب بالصدفة ..

ويبدو أن هذه الموجة قد انحسرت تماما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم تبق منها غير أعظم الاعمال الفنية للرسامين ، وأروع الاشعار والقصائد التي أنعشت الشعر الفرنسي بالذات ..

وها هو ماركوز من جديد ، يحاول التوفيق بين الماركسية والفرويدية ..

ولكن الخطير ، أنه يملأ هذه الاركان الخالية التي لم تملأها السوريالية ، لأنه يكتب عن السياسة والسلطة والدولة .. والحرية الفردية..

وأخطر ما في كتابه ، أنه يعلم تماما الماركسية ، ويدرس بدقة المجتمع السوفيتي ، ويعيش في المجتمع الامريكي ..

وهذا هو سر تأثيره على الشباب الاوربي :

انه يفسر للشباب ، مأساة المجتمعات العصرية .

ففي المجتمع الذي يسبق الرأسمالية ، والذي يتمنى أن ينهض من كبوة التخلف ، للحاق بركب التطور ، أو ما يسمونه

التفوق التكنولوجي ، هذا المجتمع يقع تحت سطوة الارهاب ٠

فالارهاب هو القوة التي توحد هذه الشذرات المتطايرة، والجموع المتنافرة ، والآراء المتضاربة ٠٠

ولكن الاخطر من ذلك ـ بالنسبة للقارىء الاوربي ـ هو انه يعلن ان المجتمع الصناعي المتقدم ليس أفضل ، ولا أحسن ٠٠

لأنه يضع بدلا من سطوة الارهاب، سطوة أعتى وألعن٠٠

انها سطوة التكنولوجيا ٠٠

ان الآلة التي تتطور لتقلل جهد العامل والعقول الالكترونية ، والسفر الى الفضاء ، والتسهيلات الرائعة ، ففي هذا المجتمع الاستهلاكي ، المسمى مجتمع الرفاهية ، أو مجتمع الوفرة ، هو مجتمع خادع مزيف ٠

لماذا ؟ ٠٠

لأن التكنولوجيا ـ حلم المتخلفين ـ هي لعنة المتقدمين ٠

فالتكنولوجيا توفر ، ولكنها تفرض نوعا « جديدا » من الاستبداد « المقبول » ٠

هذا هو ما يلاحظه ماركوز على المجتمعات الصناعية المتقدمة ٠

فاذا كان ماركوز قد لاحظ أن المجتمع الصناعي الناشىء انما يستند الى الاستغلال العضلي للعامل ، أي تشغيل العامل عشر ساعات ، أو اثنتي عشرة ساعة ، فان هذا المجتمع الصناعي الحديث انما يستند الى الاستغلال العصبي للعامل٠

لقد تغير الامر بعد تقدم التكنولوجيا ٠

ولكنه لم يتغير من الناحية الانسانية ٠

انه تغير مظهري رهيب ٠

لان الاستغلال العصبي حل محل الاستغلال العضلي ٠

ان العامل أمام الجهاز الالكتروني يحتاج الى اعصاب يقظة ، وحتى عاملة التليفون تحتاج الى اعصاب يقظة ، والطيران ، وغزو الفضاء ، والانتاج بالاتوميشين ، وكل مظاهر التقدم التكنولوجي نقلت مركز الضغط والارهاق من عضلات البشر ، وعرقهم الى أعصاب البشر ٠

ولكن هذا الاستغلال الجديد يجعل المرهقين يعرقون الى الداخل ، لا الخارج ٠

وحتى انقاص ساعات العمل ، قد يبدو لاول مرة ، تقدما اجتماعيا خطيرا ، ومطلوبا ٠

ولكن المجتمع الصناعي الحديث يعطي مزيدا من الوقت الفراغ ، ولا يعطي الوقت الحر ٠

وهكذا تتطور الدولة الصناعية الحديثة ـ بمنطقها وتنظيماتها ـ لتضغط على الحريات الفردية ، والاجتماعية ٠

وهنا ، نصل الى تفرقة دقيقة ٠

ان الوقت الفراغ هو الوقت الذي تملؤه السخافات ، والوقت الحر هو الهواء النقي الذي تستعيد به النفس صحتها وعافيتها ٠

ولكن هذا المجتمع الصناعي الحديث يعطي أبناءه ، مزيدا من الفراغ ، لا مزيدا من الحرية ٠

فهذه الاجهزة الجهنمية ، مثل التليفزيون وسخافاته ، ومثل العلاقات العامة ، ومثل الدعاية، ومثل التأثير على الرأي انعام ، وللدخول في الحياة الكامنة للانسان ، كلها أجهزة تدمير للانسان ٠

انها تدمر حريته ، وتختلس عمره ليفنيها في سخافات، وتخدعه فيظن راضيا أن هذا هو التقدم الانساني الحقيقي ٠

ان ماركوز يشرح ـ متفلسفا ـ هذه القضية التي سبق أن لخصها أنورين بيفان في كتابه « بدلا من الخوف » ، حين قال ما معناه :

ـ آه ، لو تقدمت الامور في المجتمع الصناعي ، فتوافرت الاغذية والادوية وأجهزة التليفزيون ، ووسائل الراحة المادية، ثم سرقوا أرواحنا ٠٠

فقد قال أنورين بيفان :

ـ لسنا نريد الموت تعساء أمام أجهزة التليفزيون ٠

نعم !

فهل غاية الانسان ـ من هذا التقدم التكنولوجي العظيم، أن يصبح عنده ثلاجة وسيارة وتليفزيون وغير ذلك من التسهيلات المعيشية ، ولكن « روحه » تسرق منه بالتفاهات والثقافة السطحية والتزييف ٠

هذا هو السؤال ، الذي يطرحه كل الاوربيين ، وبعض الامريكيين ، حين يتساءلون عن غاية التقدم التكنولوجي الباهر ٠

ويحلل هربرت ماركوز ظاهرة حلول التكنولوجيا محل الارهاب ، بأن مجتمع الوفرة يشدد قبضته على الانسان ، بوسائل علمية حديثة ، بعضها مذظور وبعضها غير منظور ، وأخطر من كل هذا انه يجعل الانسان يقبل الاستبداد مقابل بصع بضائع استهلاكية ٠

اذن في الامر خدعة ٠٠ وخدعة كبيرة ٠

لان المصالح الرأسمالية الكبرى تستطيع ـ بالتكنولوجيا ـ أن تخدع العمال وصغار الناس ٠

فالتكنولوجيا تقوي السلطة ٠

والجائعون للسلطة يسعون لتقوية التكنولوجيا لخدمة سلطاتهم ، وتقويتها ، لا لخدمة المستهلكين والمنتجين من عامة الناس ٠

انهم يستغلون هذه الوسائل العصرية لاضعاف النقد ، والروح النقدية ، ثم الغاء النقد تماما ٠

بل ويقول ماركوز ان الجائعين للسلطة ، أو المسيطرين عليها ، انما يسعون الى الغاء الذاكرة تماما ٠

وبهذا تتم لهم السيطرة على البشر ٠

اذن ، فالقضية الخطيرة التي يطرحها ماركوز هي ارتباط السلطة بالتكنولوجيا ٠

كيف أن هذه التكنولوجيا التي يؤمنون بها ، انما هي وسيلة للسيطرة على البشر ، لا وسيلة للرفاهية ، وعلى الاصح انسعادة الحقيقية ٠

لان السعادة الحقيقية هي ان يكون للانسان ابعاد عديدة ٠

ان تكون له حياة ، ووجهة نظر ، وروح نقدية ٠

اما هذه التكنولوجيا الواقعة تحت سيطرة المصالح ، ولمصلحة السيطرة ، فانها تجعل الانسان انسانا له بعد واحد٠

انها « تبططه » تماما ٠

وهذه هي الغربة الجديدة التي تهـدد حضارة الانسان الحديث ٠

ولكن السؤال :

ـ هل ينتقد ماركوز النظام الصناعي التكنولوجي ، أو مجتمع الوفرة ، رغبة في العودة الى الليبيرالية الكلاسيكية ٠

أي العودة الى اضعاف الدولة ، كما كانت امريكا في بداية نشأة الصناعة ، حيـن كـان الامريكيون يرفعون شعار الفردية التامة ، وابعاد سلطة الدولة عن التدخل في أي شأن من شئونهم الاقتصادية أو الاجتماعية ٠

ان مثل هذا الاتجاه موجود ، منذ أول مدخنة ارتفعت في عالم الصناعة ٠

بعض العمال كسروا المصانع ، انتقاما من اذلال الآلة «وهذه حركة انتشرت في انجلترا في بداية الثورة الصناعية»٠

وبعض المفكرين دعوا ـ خيالا وحلما ـ الى التنصل من الصناعة ، والعودة الى الزراعة ، مثل شارل فرانسوا فوربيه « في القرن ١٩ » ٠

ولا تزال في امريكا حتى الآن ، صيحات تطالب بالعودة الى الليبرالية القديمة ٠

ولكن هربرت ماركوز يوضح انـه لا يدعـو الـى هذه الحلـول ٠

لان مثل هذا الحل ، أي العودة الى الليبرالية الكاملة ، انما هو ردة بالمجتمع الامريكي ، لانه يعني أن ترفع الـدولة

يدها عن المشروعات الاجتماعية ، والكفالة للعاملين ٠٠ الخ٠

ويلاحظ ماركوز ، ان المجتمع الامريكي ينتقل من نفوذ المؤسسات الى وحدة المؤسسة ٠

أي الى الدولة الشمولية ، الشبيهة بالستالينية ، على الرغم من مظاهر الحرية ، أو طقوس الحرية الفردية التي اشتهرت بها أمريكا ٠

لان الدولة تزداد قوة ، والمصالح التي تسيطر على هذه الدولة تزداد قوة ، وذلك بفعل التكنولوجيا ، والادارة الحازمة الكفء التي تنتج عن استخدام العقول الالكترونية ، والتطور التكنولوجي الهائل ٠

ويدافع ماركوز ـ مؤقتا ـ عن تعدد المؤسسات ، لانها على الاقل تمنع من حدة المؤسسة الواحدة التي تسيطر وتسير وتوجه كل شيء ـ بطريقة خفية من وراء ستار الدعاية والتليفزيون وأجهزة توجيه الرأي العام ٠٠ الخ٠

ويقول : ان سيادة القانون ـ حتى ولو كان القانون في حد ذاته قيدا ـ خير من أن تصبح الحكومة خارج القانون ، أو فوق القانون ذاته ٠

ولكن ليست هذه هي النقطة ٠

ان النقطة الاخيرة هي ان يلاحظ ان التكنولوجيا قد استطاعت ان تقيد النقد ، والروح الناقدة ، والخيال والحلم ، او ما يسميه فلسفيا «روح الانسان الصاعدة»،وبذلك «فالادارة» تستطيع ان تعرض على النقابة اتفاقا مع رأس المال ، والحزبان الحاكمان يتفقان على الاسس ويختلفان على التفاصيل ٠

ومعنى ذلك ان التطور الكيفي الذي تنبأ به ماركس ، من ان المجتمع الراسمالي تجتمع فيه التناقضات بين ملكية وسائل الانتاج ـ وهي فردية ـ وبين طريقة الانتاج وهي جماعية ،هذا التطور الكيفي انما يصطدم بطريق مسدود ·

نعم · · ·

نحن الانفي ظروف الانتقال الى الاشتراكية ولكنالمجتمع لا ينتقل

لمـاذا ؟ · · ·

انه التطور التكنولوجي في خدمة المصالح الراسماليـة الكبرى وليس هذا فقط ·

ان ما يحدث في امريكا يحدث في اوروبا ، واخطر منه ، انه يحدث في روسيا ايضا ·

ففي اوروبا ، لا تجد خلافا ـ اساسيا ـ بين حزب العمال وحزب المحافظين ·

وفي المانيا الغربية نفس الظاهرة ·

وحتى الاحزاب الشيوعية (الوطنية) في فرنسا وايطاليا، رغم قوتها ، لم تعد تمثل قوة متناقضة ، او قوة نقدية تستطيع ان تفك هذه «الزمتة» الاجتماعية ، «وهذا يفسر غضب بعـض الشباب على الاحزاب اليسارية واليمينية في نفس الوقت » ·

وهنا يصل ماركوز الى اخطر ما يحلله ·

انهم يرفعون شعـار الاشتراكية ، ويجعلـون العمـال يخدمون البيروقراطية ·

والازمة شاملة ، في العالم كله ، وفي النظم الاجتماعية كلها ·

ففي اي عصر نعيش ؟

أو على الاصح ، في أي عصر تعيش الدولة الصناعية المتقدمة ، من اوربا الى امريكا ؟

انه عصر التكنولوجيا والحرب ٠

وهذا هو سر ازمة التوقف عن التقدم ٠ ازمة اهدار الفرد بالتكنولوجيا الحديثة ، باسم الرفاهية ، وتوفير مواد الاستهلاك ٠

انها ازمة نقد ، وازمة ثقافة ، وازمة سيطرة الاجهزة المسلحة بأخطر وسائل التكنولوجيا على الرأي العام ، وعلى الانسان ٠

انها غربة جديدة ، غير تلك الغربة التي تحدث عنها ماركس ٠

غربة الانسان الجديد في عصر التكنولوجيا والتقدم الآلي الحديث ٠

وهذا هو العصر الذي يجعل دولة كبرى من دول الرفاهية ، تبدد ثرواتها في اسراف جنوني ، وتعيش صناعتها على حروب ، متقطعة ، ولكنها مستمرة ٠

ان الآلة الحديثة تأكل ابناءها المساكين ٠

ويرد ماركوز على تلك الدعوى التي تحمس لها كثير من علماء الاجتماع الامريكيين من اصحاب نظرية « المجتمع المفتوح » مثل ويليام سوروكين ويعني به المجتمع المتطور الذي تنفتح ابوابه بواسطة الديموقراطية لكي يصعد العامل الفقير في سلم المجتمع حتى يصبح مليونيرا كما تقول اسطورة المليونير فورد وتنفتح طبقات المجتمع ، فتهضم الافواج الآتية

من الهجرة الاوروبية لتستقر في امريكا ، فوجا بعد فـــوج ، وهجرة بعد هجرة ٠

فأسطورة هذا المجتمـــع المفتوح تـــروي ان الايرلنديين والفرنسيين جاءوا الى امريكا اول الامـــر ، ثم جاء بعـــدهم الالمان ، ثم سكان شرق اوربا ٠٠ وهكذا كان كل فوج يستقر ، ثم يفسح مكانا بعد ذلك للاقليات الاخرى الوافدة ٠

لكن ماركوز يفنـــد هـــذه « الاسطورة » ويتهـــم المجتمع الامريكي ، ويقول في كتابه « الانسان ، ذو الاتجاه الواحد » ، ان المجتمع المقفل يذيب « ابعاد » أو يكســـر اضلاع الوجود الانساني ، العامة ، والخاصة ٠ لانه أصبح يستطيع استيعاب القوى والمصالح التي كانت تقاومه وتعارضه في مبدأ الامر ، عند نشأة الرأسمالية ٠

وان هذا المجتمع أصبح يستطيع تعبئة الغرائز الانسانية، ويستطيع التلاعب بها ، ويستطيع اخضاع العناصر المتفجرة ، أي المعادية له التي تكمن في لاوعي الانسان ٠

بل والاخطر من ذلك ان القوى التي كانت من قبل تمثل قوى النفي ، والتي كان يصعب التحكم فيها في المرحلة الاولى من تطور هذا المجتمع ، تصبح اكثر خضوعا ، وأسلس قيادا ، بل تنقلب ذاتها الى قوى من عناصر التوحيد والذوبان !

وأخطر من ذلك ـ كما يقول ماركوز ـ ان اذابة القوى المتناقضة أصبـــح يمكـــن حـــدوثها دون حـــاجة الـــى ارهاب مكشوف ٠

فالديمقراطية (الرأسمالية) تستطيع بالتكنولوجيا ان تشدد قبضتها أقوى من قبضة الحكم المطلق ٠

والحرية « الموجهة » ، والغرائز « المقهورة » تشترك في عملية الانتاج ، مما يجعل العملية الانتاجية تخريبا ٠

« فالتخريب » ـ مثلا ـ في فيتنام ، وتخريب الانسان ، والطبيعة والبيوت ، والاطعمة ، يسير جنبا الى جنب مع ذلك الاسراف (المربح) في المواد الخام ، وذلك الاسراف في تبديد قوى العمل ، وفي تلويث الهواء الطلق ، وتسميم المياه الجارية ٠

وهكذا ، فان ما يلاحظه ماركوز هو ان شظف الاشتراكية « الجديدة » لا يفترق عن وحشية العالم الرأسمالي في الاسراف وتبديد القوى الاجتماعية ٠

« فالخشونة » في الطرق العامة ، وساحات الرياضة ، وهتك شرف الكلمة ، والعدوان على الصور ، ورعونة السياسة (كل هذا الذي تعدى كل ما صوره القصاص اورويل في عالمه المخيف) اهدار للانسان ٠

وهاتان الصورتان المتقابلتان جعلتا الانسان المعاصر يقول : لقد أصبح الشر شيئا عاديا ٠ بل ويكاد الشر لا يثير أحدا ٠ مع انه شر فاضح يكاد يفقأ العيون ٠

لقد أصبح هذا الشر « المعتاد » النقيض لروح الكلمة الشفافة ، وروح الحركة الانسانية المتحررة ٠٠

بل واصبح هذا المجتمع المنغلق على نفسه، حين ينفتح، فينفتح على الخارج ، بالتوسع الاقتصادي ، والسياسي ، والعسكري ٠٠٠ حتى لم يعد يسهل التفرقة بين السياسة والتجارة ، بين المكانة الادبية والجوع الى الربح ، بين الحاجة والدعاية ٠

ونشأت الى جوار القيم الرأسمالية قيم ليست أقل خطرا، فأصبحنا نشهد ما يشبه العلاقة الجنسية بين المواطن كمستهلك وبين « البضاعة او السلعة المعروضة في الاسواق »٠

وأصبحنا نشهد ما يشبه تلك العلاقة أيضا بين الانسان والآلات العدوانية، وأصبحنا نشهد السوق الاستهلاكية الكبرى غارقة في جماليات زائفة تروجها الدعاية والاعلانات ٠

ولا يرجع الخطأ ـ في رأي ماركوز ـ الى مادية الحياة الصناعية الجديدة ، بل يرجع الى « تقديس البضائع الاستهلاكية » ٠٠ واستغلال السلطة الحاكمة لفكرة رفع مستوى المعيشة ، ومن ثما خضاع الغرائز الانسانية للتجارة والتبادل التجاري ٠

فماركوز ـ وكأنه يعود الى الانتقادات السابقة على الماركسية والتي وجهها الادباء والمفكرون للنظام الرأسمالي ، يتهم المجتمع الصناعي المتقدم ، بأنه يمنع الانتقال الكيفي ، أي « الوصول الى شكل اجتماعي يقوم على التعاون والتضامن لاقامة عالم طبيعي واجتماعي ولتحطيم السيطرة والعدوان »٠

ويرى ماركوز ، وكأنه يعود الى نفس تحليل فرويد للقيم الجمالية من أن الجمال والراحة والتناسق هي حاجات انسانية عضوية ٠

ولكن قهر النظام الصناعي المتقدم وتلاعب هذا النظام بالقيم الجنسية والجمالية يخلق جوا من البطولة المزيفة ، والقوة الاستفزازية ، والقسوة الوحشية ، فتصبح القوى الانتاجية مجرد تراكم للعمل ، ويصبح هدف التجارة هو الاعتداء على الطبيعة وهتك عرضها ٠

وقد وجهت انتقادات عديدة لتفكير ماركوز ، منهـا انه يغفل تصوير التناقضات التـي توجـد داخـل هـذا النظـام الصناعي المتقدم ، ولكنه ينعي ويصر على ان الطبقة العاملة في هذا النظام لم تعد تملك نفس الحـرية ، ولا القـدرة على الانتقال بالمجتمع الى التغيير الكيفي · « صحيـح انـه توجد معارضات ضد احوال العمل ، وضد الطفيلية ، وضد انخفاض مستوى الانتاجية » ولكـن هـذه المعارضة معـزولة داخليـا وخارجيا ·

وستبقى هذه المعارضة محصورة في الاطار الاقتصادي أي تتركز على المطالب الاقتصادية وبالتالي فانها تخضع في النهاية للنظام نفسه ·

ويلاحظ ماركوز في كتابه « الرجل ذو الاتجاه الواحد » أن أبناء الطبقة العاملة هم الذين يحتلون ـ عـلى مـر الايام والتطور ـ مراكز التحكم في عملية الانتاج ويستطيعون ايقاف التطور ·

لان أبناء الطبقة العاملة هم الذين يصبحون في المستقبل التكنوقراطيون والعلماء ، والمهندسون والاخصائيون ·

وبمعنى آخر ، فان فرصة الانتقال بهذا المجتمع انتقالا كيفيا ، هي فرصة تتضاءل ما دامت مستمرة في انتاج مزيد من الزبد والمدافع في نفس الوقت ، وما دامت مستمرة في تطور وسائل التحكم الشامل في الرأي العام ، واللعب به بأجهزة الاعلام وغيرها ·

ولهذا السبب ، فوجىء ماركوز بأن الطلبـة هـم الذين تبنوا أفكاره ، وأذاعوا كتبه ، فعاد يقول أن الطلبة في أنحاء العالم هم الفئة التي لم ترتبط بعد بعجلات الانتاج والمصالح

الاقتصادية والتنازلات التي قضت على الامل الكبير في تغيير المجتمع تغييرا كبيرا ..

وكان ماركوز يعود أيضا الى الخيالات الطوبوية ، بل أن له كتابا حديثا عنوانه « نهاية الطوبويات » ـ بالفرنسية ـ وهو ينادي بأن يعود المفكرون الى الطوبوية ، والى انشاء علم انساني جديد هو علم الحريات . وكاننا نسمع أصداء أفكار سان سيمون المفكر الاشتراكي الخيالي حين دعا الى موسوعة انسانية جديدة ، والى ديانة جديدة هي ديانة السلم والايمان بالتقـــدم .

ويرى ماركوز أن الحاجة شديدة الى انشاء انتربولوجيا جديدة لتكون دليلا للحياة العملية ، وتكون علما بذاته ، يدور حول الاحساس الحيوي بالحرية ، وحـــول الحاجات اللازمة لهذه الحرية .

ويقصد بهذه الحرية الجديدة ألا تكـــون مقيدة بالعمل المغترب أي الخاضع للقهر، والاستغلال، والحاجة، والشظف.

حرية تقوم على أخلاقيات جديدة تنتهي من الاخلاقيات السائدة منذ قرون طويلة ، وكاننا نجـــد فـــي هـــذه الكتابات أصداء لكتابات فورييه الاشتراكي الخيالـــي الفـــرنسي حين يطالب بتحرير العمل من القهر ، واعتبـــاره مصـــدرا متنوعا ومتجددا للسيادة ، بانشاء نظام الفلانسيتر والمدن والحدائق، واجتماع العاملين في مدن صغيرة غارقة في الحدائق والغاء الخدم ، وأن يكون من حق المشتركين في المدينة تغيير اعمالهم من فترة الى أخرى ، حتى لا يصبح العمل تكرارا وروتينا يفقد العمل بهجته وجدته .

وقد يبدو ان بعض الافكار فيه معادة ، كتبها كتاب يساريون في انتقاد النظام الرأسمالي الامريكي ، أو كتبها غاضبون على الاحزاب اليسارية او اليمينية في أوروبا ، او رسمها قصاصون عن الحكم بالارهاب الدموي ، أو الحكم بالارهاب التكنولوجي ، لكن الجديد في هذا الكتاب هو انه شامل لكل هذه النظم ولكل المحاولات الاجتماعية المعاصرة ٠٠ وهذا هو سر خطورته ٠

ولهذا اصبح انجيل الغاضبين من الشبان ٠

وكان شباب أوربا أعنف الغاضبين ، وشباب أمريكا أهدأ الغاضبين ٠ وقد يرجع هذا الى ضعف التكنولوجيا أو قوتها في العالم القديم والعالم الجديد !

لكنها صرخة فكرية سيكون لها أثرها البعيد ٠

انها تنبه الى ان الدعوة الى التطور والتقدم يجب ألا يكون غاية في حد ذاته ، والدعوة الى التقدم العصري والتكنولوجي يجب الا تكون تمهيدا لتشديد سيطرة الادارة ، وهضم النقد ، واهدار الحرية ٠

فلا بد ان يكون التقدم وسيلة لا غاية ٠٠ حتى توضع التكنولوجيا في خدمة الانسان ، وتأكيد النقد ، وتدعيم الحريات ، لا لتكون لعنة على النقد والحريات ٠٠ والانسان ٠

ايه ثـورة تتخلى عن الشرف ·· تتخلى عـن مبـادئها ·· لان الثورة ـ قبـل كـل شيء ـ هي الشرف ·

البير كامو

الشمس مجّاناً

كانت آخر من عرفت بحادث ابنها ..

فلم يكد ألبير كامو يصاب في حادث سيارة سريعة ، ويموت ، حتى أوقفت اذاعات العالم برامجها ، لتذيع الخبر المفاجيء .

ولكن أم ألبير كامو لم تسمع الخبر في وقته ، لانها لم تكن في الامس تستطيع أن تسمع ، فلها أذنان ضعيفتان الى حد الصمم ..

وعرفت الخبر بعد وقت ..

فقد جاء اليها شقيقها لوسيان ، الذي يعيش معها ، وهو أصم . بل ولا يتكلم أيضا على الرغم من قوة بدنه ، وذكاء عقله وقلبه !

ولم يجرؤ أحد على أن ينقل الخبر الى الام ، فكان على شقيقها أن يتفاهم معها .

وكانت تجلس ذلك المساء في البيت الصغير ، الذي يتكون من طابق ودور أرضي ، وبلكونات صغيرة ، ومدخل متوسط الارتفاع ، ويطل على شارع متواضع في مدينة مندوفي بالجزائر ..

وكانت الام لا تحس بمقدم أحد من زوارها أو ضيوفها، أو أهل البيت الذين يعيشون معها ، الا حين تضيء لمبة صغيرة في الردهة الواسعة التي تجلس فيها دائما ..

وكانت حين تضاء اللمبة ـ بدلا من أن يدق جرس الباب الخارجي ـ تقوم ، وهي العجوز المهضومة الجسم لتفتح الباب بنفسها ..

ولكنها هذه المرة لم تكد ترى النور يضيء ، ولم تكد تهم من جلستها المعتادة حتى كان شقيقها لوسيان يقف أمامها وسط الردهة الواسعة ٠

وخطف منظره قلبها ٠

كان لا يستطيع أن يقيم رأسه ، لانه يميل منه ، وكأن قوة ، أقوى من النوم ، وأقوى من التعب تشده وتنكسه ٠

وقف لا يعرف كيف ينقل اليها الخبر ٠

كيف يشرح لها حادث السيارة ٠٠ وكيف يشرح لها حادثا لم تكن تتوقعه ، بل وكيف يقول لها :

ـ ان الشاب مات في الخامسة والاربعين ؟

ولم يتحرك ، وبدا له كل شيء احمر اللون داكنا ، بين السخونة والالتهاب ، وأحس كأن ضربات غليظة تلكم عروقه في كل مكان ، وأن قدميه لا تحملانه ٠٠ وكأنما تورمتا ، فلم يعد يحس بالارض ٠

٤٢

ووقفت الام ، والجزع يطير عقلها ٠٠

وماج شقيقها ، ومال ، وكأنه عود رفيع من الحطب ، وتمايل الشقيقان ٠٠ وكأنهما عودان من الحطب ، ولوسيان لا يفعل شيئا ٠

وانفجر لوسيان ٠ ٠العريض الضخم ، في البكاء وكأنه طفـل ٠

وبكت شقيقته من الحيرة ، وحزنا على حزن شقيقها ، قبل ان تعرف منه الحقيقة ٠

وقبل ان تكتشف ان المصاب مصابها وان الذي مات هو

ابنها · وان عليها ان تحزن حزنها الخاص ·· بقية ايامها ·

★ ★ ★

ولكن ·· كثيرين كانوا يعتقدون ويقولون ان احدا لم يمت من الحزن ·

وحين رآها الجيران ـ بعد ستة شهور ـ تخرج من عزلتها ، وتجلس في البلكونة وتتفرج على المارة قالوا :

ـ بدأت المسكينة تفيق من الصدمة ؟

ولكنها كانت تجلس في البلكونة ، وتسند رأسها على حديدها ، ولا تسمع أو ترى شيئا ، أو كانت حين ترى المارة يسيرون ، فكأنهم يتزحلقون بعيدا عنها على قباقيب الجليد ·

ولم تعد تأكل ، ولم تعد تحس بطعم شيء ·· سوى حديد السور في البلكونة الذي كان مالحا صلبا ، وهي تضع أسنانها عليه ، من شدة الجزع ·

فهي تفكر في ابنها حين كان رضيعا ومات أبوه ، وهو لا يزال في أحضانها ·

فقد مات أبوه في حرب ١٤ ، جنديا بسيطا ··

وتفكر فيه ، وهو صغير يذهب الى الكتاب يتعلم ألف باء ·· ثم يتفوق حتى يفوز بالمجانية ، فيوفر لها المصاريف ·· حتى يصل الى الثانية ويلعب الرياضة ، ويتفوق فيها، وخاصة كرة القدم ، ويمثل ، فيفوز في مباريات التمثيل المدرسية ·

وكانت تحس بالسعادة ، ولكنها كانت تحس نحوه بشيء من قلة الحيلة ، لانها تضعف وهو يقوى ·· ولانه ذكي الفؤاد

ويتفوق في كل شيء ، يتعلم ويمثل ويكتب الشعر ، ويلعب كرة القدم وكلما زادت قوته أحست انه يبعد عنها لانها لا تعرف القراءة ، ولا تستطيع حتى أن تستمع الى فتاها الذكي النجيب ..

واتسعت المسافة بينها وبينه ..

وسار البير كامو بعيدا عن أمه ، لانه شق طريقه وحيدا، ولعله لم يلتفت الى أمه ، الا حين انتهى ـ تقريبا ـ من رحلة الادب ، وحين حصل على جائزة نوبل .

وكانت أمه تحس بأن ابنها وحيد .. يعيش مع نفسه ومع كتبه ، ومع أفكاره .. وكان يبتعد عنها ، على الرغم من العطف الذي كان يبديه لها أواخر ايامه ..

كان يبتعد عنها ، لان أفكارا غريبة تشغله ، ولانه يكبر ويكبر .. وهي تضعف .. وتضعف .

وماتت بعد عام ونصف ، حين ظن الناس انها أفاقت تماما من الصدمة !

★ ★ ★

والاطفال حين يستبد بهم الالم .. لا تتحمله اجسادهم الصغيرة ولذلك يطلقون أرجلهم للجري ، وقد تعود البير كامو أن يجري في حياته ، وحيدا .. والذي يجري ينطلق وحده دائما ..

بل لعل أغرب ما في حياة هذا الاديب انه كان يحب

الرياضة ، ويحب اللعب مع الآخرين · وكان يلعب كرة القدم ، ولكنه كان يختار دائما مركز « الجول » ·

فالجول هو اللاعب الذي يلعب مع الآخرين ، ولكنه يقف دائما وحيدا !

وكان البير كامو يسير وحيدا ، ويدرس وحيدا ، ويقف وحيدا · والشيء الوحيد الذي تعود عليه البير كامو منـــذ صباه هو الوحدة ·

وهو يصف الجو الذي تربى فيه فيقول :

« في هذا البيت ، كانوا يعيشون خمسة: الجدة، وابنها، وابنتها ، وطفلان » ·

الابن ـ وهو عمه ـ كان لا يسمع ، ولا يتكلم ··

والبنت ـ وهي أمه ـ كـــانت لا تسمـــع وكانت تفكـر بصعوبة ·· »

والعاقلة الوحيدة ، المتحكمة في البيت كله كانت جدته ·· لأمه ··

ولا يزال يذكر بعض اللحظات الاليمة التي مرت بصباه ·· فقد كانت الجدة تنتظر حتى تأتي زائرات من السيدات ، وتسأله هذا السؤال المحرج امامهم :

ـ البير ، من الذي تحبه أكثر جدتك أم أمك ؟

وكان الصبي يرد أمام الزائرات :

ـ جدتي !·

ولكنه كان يحس بحب غـــامض صامت أخرس ، يتجه اتجاها آخر · ولا يجرؤ على ان يفصح عنه ··

« ففي ذلك البيت المتواضع لم يكن هناك غير دور واحد، وكانت سلالمه مظلمة · وأصبح بعد سنوات عديدة يعرف كيف يشق طريقه وحده ، وهو في قلب الليـــل · وكان يعرف كيف يقفز السلالم ، دون أن تتعثر خطـــاه ، فقد ذاب جسـده في البيت ، وعرفت اقدامه ارتفاع السلالم ، وعرف كيف يضـع يده في المكان المناسب على درابزين السلم ، دون أن يستطيع التغلب على ذلك الخوف الغريزي ·· من الصراصير ·

وقد استطاع الصبي أن يبتعد عن دائرة عائلته الغريبة ـ مع احتفاظه بحبه لها ـ بالرياضـــة والـدراسة الحساسة المتواصلة ·

وأحب دراسته حبا عظيما ، وتعلق بأول مدرس علمـه الحروف الاولى في المدرسة الابتدائية ، الى الحد الذي جعله يهدي اليه الخطاب الذي ألقاه ـ بعد اربعين عاما ـ في احتفال جائزة نوبل ·

واهتم كامو بالشعراء ، والكتاب ، والفلاسفة ·· واهتم بالذات بفلسفة اليونان ، وأخذ يقرأ مارسيل بروست ، مؤلف « ذكريات وقت ضائع » ، وفي عام ١٩٣٦ اختار لدبلومه العالي دراسة عنوانها : العلاقة بين الروح اليونانية ، وبين المسيحية وبين الفيلسوف اليوناني أفـــلاطون ، والفيلسـوف المسيحي سانت أوجستان ·

ولكن البير كامو أصيب بمرض في صدره ، واضطر أن يقطع دراسته ، وظل في المستشفى ثلاثة شهور متوالية وحيدا ·

ولم يستطع أن يكمل دراسة الاجرجاسيون التي تـؤهله للتدريس ٠٠ وعرضوا عليه أن يعمل مدرسا في مدرسة سيدي أبو العباس بالقرب من مدينـــة قسطنطينـة ٠ ولكن التدريس مرهق ، فبدأ يكتب لنفسه ، ثم التحق باحدى الصحف اليومية التي تصدر بالفرنسية ، واسمها « الجمهورية » وأخذ ينشـــر تحقيقات صحفية عن الفقراء ، وعن القبائل في جنوب الجزائر، حتى تنبهت اليه السلطات، واعتبرته غير مرغوب فيه، ووضعته في قائمة المشبوهين ٠

فسافر الى باريس ، ليعمـــل مع اندريه مالرو الكـاتب والقصاص ، ولكن الحرب اشتعلت ، واحتل الالمان باريس ، وبدأت المقاومة في صفوف المثقفين ٠

وترأس البير كامو تحرير جريدة « كومبا » اي الكفاح، التي تصدر سرية لتقاوم النازية والاحتلال ، وبدأ يكتب قصة « الغريب » ومقالا طويلا اسمه « اسطورة سيزيف » ٠

وبدأت شخصية البير كامو تتفجر ، وتظهر وتسطع ٠٠ فكانت مفاجأة لباريس بل وللادب الاوربي كله ٠

فقد استوعب البير كامو الحضارة اليونانية والاوربية، وجاء الى باريس بشيء جديد على أوربا هو الطبيعة : الشمس والهواء والجبل والرمل ، وحزن البسطاء ٠

فاذا فتحت صفحة من كتاب لكـامو ، هبت على وجهك نسمة من البحر ، بل وشممت رائحة السمك ٠

فالبير كامو ، قبل أن يكـــون أديبـا أوربيا ، من هؤلاء الادباء الذين يسمونهم أدباء « البحر الابيض » ٠

لان فيه شيئا كثيرا من أبي القاسم الشابي شاعر تونس،

وفيه شيء من طه حسين لان فيهم ـ هم الثلاثة ـ نوعا من الصحو المبكر ، والنغم المضيء والموسيقى اللفظية التي يتميز بها الادباء الذين يعيشون قريبا من البحر ..

واذا كان البير كامو قد هضم أوربا والتراث الاوربي ، فلقد ظلت أيام طفولته مطبوعة فيه ، ولذلك جاء لهذه المدن المظلمة الخربة الحزينة .. المليئة بالضباب والمليئة بجنون النازية ، بروح جديدة ثائرة ، معذبة بالحرية والعدل .

وهذا هو الشيء الجديد الذي أتى به الى أوربا .

وكتابات البير كامو مليئة بالاعترافات ولكنها اعترافات محرفة . فحياة كامو ـ وهو طفل ـ مليئة بالاحزان وبالوحدة والبطولة والمقاومة ، ولذلك فهو يحورها وينقلها بشيء من الفن الى جو آخر ، وزمان آخر ، فتصبح مسرحية في روسيا، او مقالا طويلا في معنى الحرية ، أو بحثا في أساطير اليونان القديمة .

ففي قصة « الغريب » أول وأشهر قصصه يحكي قصة شاب أسمه ميرسيلو ، موظف متواضع .. متوسط القامة.. في منتصف العمر ، لا يميزه شيء عن بقية الناس ..

ماتت أمه وحيدة في مستشفى للفقراء فيذهب لدفنها، وهو حزين ، ولكن بلا اهتمام ، ثم يعود الى المدينة ، ليقابل فتاة يحبها حبا مؤقتا ، ويذهب معها الى أحد افلام فرناندل الضاحكة .. ويذهب ليستحم في البحر ، وله صديق له قصص ومغامرات نسائية ولا يعرف الكتابة .. فيطلب منه أن يكتبله خطابا غراميا ، فيكتبه غير راغب أو مقبل .

ويذهب مع صديقه الى البلاج .. فيفاجأ ببعض أعداء

صديقه يهددونه بسكين فيهربان منهم ، ويأخذ البطل من صديقه المسدس الذي يحمله ، حتى يجنبه التورط في حادث سخيف غير مقصود ٠

ويفترق الصديقان ، ولكن البطل يلتقي صدفة من جديد بأعداء صديقه ، ويشهر أحدهم عليه سكينا ، وتلمع السكينة في الشمس ، وتضرب الشمس بأشعتها في عين البطل، ويأخذه ذعر مفاجيء فيطلق رصاصة على غريمه الذي يواجهه بالسكين فيموت ٠

صدفة سخيفة !

ويقبض عليه ، ويحاكم ، ويحمل الاتهام عليه ، ويحكى ماذا فعل البطل عند دفن أمه ٠

ـ لقد ذهب الى السينما ، والتقى بفتاة !

ويتأثر المحلفون بهذا الابن العاق الذي يتنزه بمسدس، ويطلق الرصاص على أول عابر طريق ، بلا سبب ٠

انه يستحق الموت بلا شك ، ولا يستحق الرحمة من أحد ٠

وصفقت باريس للكاتب الجديد الذي يكتب عن مأساة الانسان الحديث وهو الرجل العادي الذي يعيش حياة عادية٠ ولكنه فجأة يقع في المحظور ، ويتعرض للخطر من أجل صدفة عابثة ٠

والبير كامو يتهم حياة الناس بأنها عادية ، وأقل من عادية ، انها سخيفة ، يسحقها الروتين ، ويمزقها الملل ٠ فالانسان يصحو من النوم ، ويركب الترام ، ويقضي ساعات في المكتب أو المصنع ويتناول طعامه ، ثم ينام ، وهكذا يمضي الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة ٠٠ بنفس

الترتيب ، ونفس الروتين ؟٠

فاين هي الحياة الحقيقية ؟

وهل يمكن أن يضيع عمر الانسان بين هذه المحطات ، وكأنه عربة ترام قديمة مستعملة مستهلكة ؟

والبير كامو يتهم الحياة في المدن بأنها مغطاة بالصدأ، فالانسان الحديث ، أعطى ظهره للطبيعة ، وأعطى وجهه للمدنية ، وضاعت حياته الحقيقية ٠

وحياة الانسان تشبه « ذلك الرجل الذي تراه يتكلم من وراء لوح من الزجاج فلا تسمعه ، ولا تفهمه ، ولكنك تراه يتكلم »٠

ولكن ما هي حياة الانسان ؟
هذا هو السؤال الملح اللجوج ، الذي يسأله كل المفكرين والادباء في هذا العصر ٠

ولعل عصرنا هو الوحيد الذي يتميز بكثرة النظريات، وكثرة المحاولات لتغيير الحياة ٠

انها صحوة مثل صحوة اليونانيين الذين كانوا يفكرون في الكون وأصل الكون ٠٠

فالبعض كانوا يقولون ، انما أصل الكون هو النار، والبعض كان يقول انه الماء ٠٠ والبعض كان يناجي السماء !

وقد انحصر اهتمام المفكرين ـ في هذه الايام ـ في الانسان على الارض ٠٠

من هو الانسان ، ولماذا يعيش ، ومـــا هي غايته مـن الحياة ؟

وتتابعت التفسيرات ، والتفسيرات تركز النظر والفـكر عادة على عامل واحد ·· يبسط هذه العقـــد ، ويرفع هـذه الحيرة ·

فماركس يقول أن الاقتصاد ـ غالبا ـ هو الذي يحـرك التاريخ ·

وفرويد يقول ان الجنس غالبا هو الذي يفسر الانسان·

وكيركيجارد يقول أن القلق غالبا هو سر الوجود ·

وحين جاء البير كامو قال ان الانسان يشبه سيزيف بطل الاسطورة الاغريقية ، فهناك أسطورة اغريقية تقول أنسيزيف محكوم عليه بأن يحمـــل صخرة كبيرة الى أعلى قمة الجبل، حتى اذا كاد أن يدركها ، غلبتـــه الصخـرة ، فخارت قواه، وعادت الصخرة الى السفح من جديد ، وبدأ سيزيف يصعد الجبل ·

وهذه أسطورة قديمة ، ولكن كـــامو يفسرها تفسيـرا جديدا ، فهو يقـول ان متعة الحيـــاة هي في رفـع الصخرة وليست في غاية الحياة ··

فليس للحياة غاية سوى الموت !

ولذلك فلذة الصعود ـ حتى ولو كانت الصخرة ستعود ـ وهي اللذة التي تجعل الانسان يجد ويجتهد ويحيا مع أنـه يعلم أن الصخرة ستغلبه آخر الامر وبكل تأكيد ·

فالناس جميعا يعلمون أنهم سيموتـــون ، ومـــع ذلك يتمسكون بالحياة ، وكأنهم يعيشون أبدا ·

وهكذا فالحياة خليط من اللذة والسخف · وتتأرجح بين المعقول وغير المعقول ، وليس هناك شيء معقول تماما ، ولا مجنون تماما ·

انها وتر متوتر بين الجنون والعقل ، والحياة والموت ، وهذا هو سر القلق ··

ولذلك فكتابات كامو تعبر عن تفاؤل مقبض ، أو كما يقول الكثيرون لا تعبر عن اليأس ، ولكنها تعبر عن انعدام الامل ، فاليأس قد يصيب الحياة بالخمول والاستسلام ولكنك قد تفقد الامل ، ومع ذلك تمسك بخيط الحياة ، ما دامت هناك فرصة واحدة على مليون ·

وكان يصرخ على لسان الامبراطور كاليجولا في روايته الشهيرة ، بأن الانسان محكوم عليه بالموت ، والموت هو اليقين الوحيد ··

انه كالشمس ، أو كالبحر ·

فالانسان يكذب ويتلون ، ولكن الشمس تسطع ، وليس وراءها غرض من الطلوع ·· والبحر يهدر ، لا يسكت ابدا ، ولونه أزرق ، ولن يغير لونه أبدا ··

وسر اعجاب البير كامو بالطبيعة انها لا تكذب ، وأنها صادقة ، وشريفة بأرفع ما يكون معنى الشرف ·

ولكن الذي يغفر للانسان كل شيء هو الحرية ··

والانسان حرية قبل كل شيء · لان الانسان ـ كما يقول كامو ـ هو المخلوق الوحيد الذي يرفض ان يبقى كما هو ·· انه مستقبل ·· فالانسان وجود ومستقبل والحيوان وجود فقط ·

والذي اكتشف المستقبل من المفكرين هو هيجل ، فقبل هيجل كان المفكرون لا يعتبرون الانسان جزءا من التاريخ ٠

كانوا يضعونه في المكـــان ، ولكن هيجـل اضاف الى المكان بعدا ثانيا هو الزمن ، وبالتالي قال أن هناك مستقبلا ، وأن هناك تطورا نحو هذا المستقبل ٠

واذا كان هيجل قد اعتبر ان الحركة نحو المستقبل تتم بالتناقض تماما كما تنطلق النفاثة ٠ بالفعل وردود الفعل ٠٠ فان التاريخ يتطور بالتناقض بين العبودية والحرية ٠

والحرية عند كامو هي أن يقول الانسان لا ٠٠

فمن هذه الكلمة تبدأ الحـــرية ويبـدأ الوعي بالحرية، والوعي هو انفعال وعاطفة ووجد أشد تعذيبا من وجد المحبين والعشاق ٠٠

وقصة الانسان هي في الواقع قصة السيد والعبد ٠

والسيد مسكين ، على عكس ما قد يظن الكثيرون ، لان ارادته المطلقة ، في الوقت الذي تصبح فيه مطلقة ، تقبض على الريح ما دامت الغت الحرية ، فاعتراف الذين ألغيت حرياتهم

ليس اعترافا لانه اعتراف موتى او من رجال كانوا حرية ٠٠ وأصبحوا عبيدا ٠٠ واعتراف العبيد بالسيد اعتراف نـاقص مبتور مصاب بعاهة اسمها الخضوع أو النفاق أو الوصولية، ولذلك فهو اعتراف مشوه ومهزوز ، كالجلوس ـ ساقا عـلى

* * *

وانعقدت صداقة ـ فكرية وخاصة ـ بين سارتر وكامو ٠

وانعقدت الصداقة بين الرجلين لانهما يعجبان بنيتشه، ويكرهان أو يحتقران النازية ، ولانهما يخلصان للفكر الالماني ويستوعبانه ، ويخرجانه فكرا فرنسيا رقيق المقاطع ، شفاف السريرة ٠

وانعقدت الصداقة بين الرجلين لانهما تخرجا فيمدرسة عملية واحدة ، هي المقاومة ضد النازية ٠

فسارتر كان يقاوم ، وكامو كان يقاوم ٠

وطوال الزحف على باريس ، بهـذه الافكار الادبيـة والفلسفية نسي الصديقان ما بينهما من خلافات داخلية، ولكن ما كادت الامور تستقر في عام ١٩٥٥ ، وبـدأت فترة ما بعـد الحرب تتغير ٠٠ حتى افترقت الطرق ، وكان الخلاف هي حب وعشق وهم ومأساة ومسؤولية المفكـرين في هذا العصر الحرية ٠٠

فسارتر عاقل ٠٠ وكامو عاطفي٠ وسارتر مادي، وكامو طبيعي ٠ وسارتر يعترف بالواقع ، ومنه يبدأ العمل ، وكـامو سجن نفسه في هذا المعنى المطلق للحرية ٠٠

فهو يقول أنا أثور ، اذن فنحن موجودون ، على طريقة ديكارت الشهيرة : أنا أفكر ، اذن فأنـا موجود ٠ فـاذا كان ديكارت قد اعتبر الفكر هو علامة الوجود ، فكامو يعتبر الثورة علامة الوجود ٠

لمـن ؟

للجميع ٠٠ فهو لم يقل أنا أثور ، اذن فأنا موجود ٠٠ بل يقول أنا أثور فنحن موجودون ، فوجود الجميع يتوقف على حرية الفرد ٠

★ ★ ★

والبير كامو ، حين أصبح من أشهر أدبـاء العالم ظل مخلصا لذوقه ومزاجه القديم ، فهو الكاتب الوحيد الذي كان يكتب في غرفة بسيطة بباريس ، مؤثثة ببساطة وذوق ، فيها كتب قليلة وبضع زهور وبضعة رسوم ، ومكتب غريب ، لانه هو الكاتب الوحيد الذي كان يكتب وهو واقف ٠ فالمكتب رسم على طريقة المكاتب التـي تكتـب عليها ، وأنـت فـي مكاتب التلغراف ، عال بقدر قامة الرجل ٠٠

وكان كامو يفضل الكتابة بهذه الطريقة الغريبة واقفا ٠٠

وفي باريس ، حيث جاءته الشهرة والمال والمجد لم يعبأ بشيء من التمتع بالشهرة أو المال أو المجد ٠

فعندما جاءه المجد ـ بعد جائزة نوبل ـ قال أنا لا أبحث عن المجد ، انما أبحث عن السعادة ٠

وفي باريس تتجمع فنون الترف ، فهناك فـن للحدائق « الفرنسية »، والمطبخ « الفرنسي » له أفانين وابتكارات ، والموضة الباريسية لها مغامرات وشطحات وأثاث البيوت له عصور وصور ، وفي باريس كل فنون المذاق والذوق ٠

ومع ذلك ظل كامو لا يعبأ بكل هـذه الملذات الحسية ، وكان يقول :

ـ « ما زلت أحتفظ بهذا التفاؤل الذي يؤمن به الفقراء ، والذي يساعدهم على الحياة ، والحق أنني لم أتمتع بحاسة الملكية ، ولم أتصور أن أعيش مالكا بين أملاكي ٠

فالشمس والبحر والهواء ـ أهم شيء في الحياة ـ مجانا ٠٠ بل انني لا أتصور الحياة الا في غرفة فندق ، لأن هذه الغرفة لن تكون ملكي ٠٠

نعم ٠٠ أريد أن أعيش في غرفة فندق ليست ملكي ، بل وأن أموت فيها ٠ »

وأمنية الموت في غرفة فندق لون من التصوف والترفع عن الملكية ٠

وقد مات البير كامو في سيارة ٠٠ حيث لا يمكن الاقامة دائما ٠٠ تماما كغرفة الفندق ، والفرق أن السيارة تنطلق أحيانا الى الموت ٠٠ فجأة ٠

وفي عز الشباب ٠

« الشيء الاكيد الذي اكـــرهه ، عـــلى كافة اشكاله، هو البساطة!! »

سلفادور دالي

« اننا لن ننتقد العالم كما انتقده فولتير .
بل سنبدأ بالعدوان عليه . »

اندريه بريتون

« انني العن العلم .. ما نحـن الا انهـزاميو اوربا .. واننـــا نبذر البلبلة في كل مكان .. اننا نحن الذين سنمد في الغـد ايدينـــا الى اعدائنا . »

لوي اراجون ـ حين كان سورياليا ..

تسقط البساطة

كان الضوء باهتا · وفي أحد شوارع باريس كان أحد المارة يلبس ثيابا داكنة وياقة بيضاء مرتفعة ، وعلى رأسه قبعة عالية ، وفي يده شمسية مقفلة · وكان يضرب بخطواته في اعتداد وثقة فيسمع وقع خطوافه على اسفلت ذلك الشارع المهجور في تلك الساعة ··

ويبدو ان الرجل كان في طريقه الى احدى السهرات ، فقد كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء ·

ولم يكد يقترب من نهاية الشارع حتى خرج اليه رجل يشهر مسدسا في وجهه ·

فتوقف الرجل الانيق والخوف والمفاجأة يعقدان لسانه· واعقبت دهشته فترة من الانتظار والتوجس ·

ولكن انتظاره لم يطل ، لان الرجل الذي يحمل المسدس رفع له قبعته بيده اليسرى وهو يقول :

ـ الساعة كام من فضلك ؟! ·

وبارتباك ، نظر الرجل الانيق في ساعته ، وأخبره بالساعة ··

وأعاد الرجل مسدسه الى جيبه ، ورفع ذراعه ، وضبط ساعته ·· ثم اختفى ·· اختفى بخطوات كالجري ·· وهو يتمتم بكلمات الشكر للرجل الانيق الذي لم يستطع التحرك من الذهول ! ··

ولم يكن الرجل الذي ظهر بسرعة واختفى بسرعة وسأل عن الساعة غير الفنان الكاتب « جاك فاشيه » ··

وانتشرت قصة الرجل الذي هدد أحد المارة بالمسدس ليساله عن الساعة ·· ونشرت الجرائد خبر هذه الفضيحة ·

وفي المنتديات والمقاهي والندوات الادبية أذاع جاك فاشيه أنه أراد من هذه « الفضيحة » أن يثير الدهشة ··

والدهشة تثار من « تدمير الواقع » المترابط الذي ألفه الناس وتعودوا عليه ·· والدهشة هي التي تكسر جليد الحقيقة ، وهي البركان الذي يمزق هذه الحقائق المقامة على أرض الواقع · **وعلى الفنان أو الاديب أن يثير بكافة الطرق والاساليب ـ بل والحيل ـ دهشة الناس ··**

ومن تدمير الواقع الذي يثير الدهشة تبدأ قصة طويلة لمذهب غريب اسمه « السريالية » ··

ولكن لماذا يلجأ السرياليون الى اثارة الدهشة ؟ ··

انهم يرون في ذلك سلاحا ماضيا للاحتجاج على المنطق والواقع ! · ويعتقدون انه لا يكفي ان يقتصر الانسان على الواقع الذي يدركه المنطق· ويرون في النفس الانسانية اغوارا عميقة لا يفسرها المنطق أو القواعد العقلية التي توارثناها منذ فلاسفة اليونان والعرب والهندوس والصين ···

واذا كان العالم قد فهم العلوم ·· وأقام الهندسة ·· واكتشف قوانين الطبيعة ·· فماذا صنع في النفس الانسانية؟

وأين الخيال ؟ ·· وأين العقل الباطن وأين الاحلام ؟ ·· أليست لهذه كلها تفسيرات ·· ووجود ! ··

انهم يقولون : كما ان للعلم منطقا ·· فان للخيال قواعد ، وللعقل الباطن عالما وحيزا رحيبا ·· بل وللجنون تفسيرا ··

ويؤكدون ما يقولون بأمثلة عديدة عن « منطق » الخيال ٠٠ اذا كنت تجلس على مقعد وثير تشاهد احدى المسرحيات ورأيت جريمة قتل يرتكبها أحد الممثلين ٠٠ فهل تتحرك ؟ ٠٠

الحقيقة انك لا تنتفض من مكانك ، أو تهب لتوقف الجريمة أو تضبط المجرم أو تستعين بالبوليس ! ٠

أليس معنى ذلك أن للخيال حقيقة وعالما في ذهن الانسان ؟! وهو الذي يجعلك تبقى في مكانك وترضى ـ عن طريق المجاز بأحداث المسرحية وبأصوات المسدسات ووقوع الجثث على خشبة المسرح ! ٠٠

وقد حاول العلم أن يكتشف أغوار النفس وآبارها السحيقة ، فكان على رأس المنقبين العلامة « سيجموند فرويد » الذي اكتشف ان للحلم قوانين وتفسيرات ٠٠ وربط الاحلام بالرغبات ٠٠ وبعد ان كان العلماء يقتصرون في تصوير النفس الانسانية على العقل ٠٠ واستمر الناس يقنعون بهذا التفسير عدة آلاف من السنين ، اكتشف فرويد أن هناك عالما آخر غير عالم المنطق والعقل ٠٠ هو علم اللاوعي ٠٠ الذي يظهر في الاحلام ٠

وقد اصبحت الاحلام بحرا مروضا بعد ان كانت بحر ظلمات ٠٠

وجاء فرويد يقول ان الاحلام لا تسيطر عليها الصدفة البحتة ٠٠ المرسلة ٠٠ وان الاحلام تحقيق لرغبات مكبوتة ٠٠ وانك في الحلم تحقق ما لا تستطيعه في الحقيقة ٠٠ والاحلام تفجير وتحقيق لهذه الرغبات العديدة التي تكبتها قوانين المجتمع وقيوده ٠٠

فالحلم هو الرغبة ٠٠ المصورة ! ٠٠

ولهذه الاسباب فان السرياليين يقولون ان ما تعودنا عليه من تقسيم في الظاهر بين الخيال والحقيقة ، أو الحلم والواقع ، أو العقل والجنون ، ان هو الا تقسيم مزيف ٠٠ جامد : لانه لا فرق بين الخيال والحقيقة ! ٠٠

واندريه بريتون ، رائد السريالية والشاعر الذي اخترع هذا الاتجاه الادبي والفني وبدأه في باريس ، يقص قصة جعلته يؤمن بهذا الافتراض ! ٠٠

يحكي بريتون قصة جندي التقى به اثناء الحرب العالمية الاولى ٠٠ وكان الجندي قد خرج من الحرب مجنونا بعد ان ذاق اهوال المعارك ٠٠ وتبادل الجندي مع بريتون الحديث ٠٠ فاذا بالجندي يحاول ان يقنعه بأن كل هذه الحرب ليست حقيقة ٠٠

فهو في جنونه يتصور ان الحرب خدعة « كاموفلاج »٠٠ وان اصابات الجرحى الممددين على الاسرة ٠٠ والملفوفين في الضمادات ليست سوى « ماكياج » وصبغة حمراء تزول بسهولة ٠٠ وان القنابل « اكسسوار » ٠٠ وان الحرب كلها تمثيلية متفق على اخراجها من قبل بين الفريقين المتحاربين!٠٠

واكتشف بريتون في هذا المجنون ـ وفي النفس الانسانية ـ قوة مهولة تعاونها على الهرب من الالم ٠٠ أي الهرب من الحقيقة المؤلمة ٠٠ فعندما يواجه الانسان ما لا مفر فيه من الحقيقة المرعبة المريرة كالعلقم ٠٠ الرهيبة كجهنم ، تندفع في اعماقه قوة غريبة ٠٠ تجعله يصدق ان الحقيقة غير موجودة ، ويصبح الجنون هو الحل وهو المسكن الدائم للحقيقة المؤلمة٠٠ وهذا منتهى الخيال ٠٠

ساق ـ من فوق بركان ٠

★ ★ ★

ونهاية الخيال الجامح هو نقطة البدء في السريالية ٠٠
وهم يعرفون الخيال كما يقول رائدهم بريتون بأنه « **الشيء الذي سيصبح حقيقة** » ٠

ويعطون أمثلة عديدة كان الخيال فيها يسمع ويرى بل ويلمس ٠٠ فجان دارك كانت ترى رؤى من الخيال وتخاطبها كأنها الحقيقة ٠٠ أو لانها الحقيقة ! ٠٠
وقصة الكاتب فلوبير والزرنيخ معروفة ٠٠ فقد ماتت زوجته « ايما » من سم الزرنيخ ٠٠

وجلس فلوبير يكتب في احدى قصصه مشهدا تموت فيه سيدة بسم الزرنيخ ٠٠ واستغرقت كتابة المشهد ثلاثة ايام، أحس بعدها فلوبير بمذاق الزرنيخ لا يفارق فمه اياما عديدة٠٠

وقصة الفيلسوف مالبرانش عن خادمته معروفة ايضا٠٠ فقد أصيب مالبرانش في قدمه حتى أدمت٠٠ واعتكف الفيلسوف في سريره ٠ ولازمته خادمته الى جواره ٠٠ فاذا بها تحس احساسا اليما بأن قدمها تدمى في نفس الوضع الذي أصيب فيه سيدها ٠٠ والأمثلة عديدة يذيعها السرياليون ويقصدون منها أن الخيال يقفز أحيانا فيزيح الحقيقة ويجلس مكانها فيحتل في حياة الناس ٠

ولم يقتصر السرياليون على ركوب الخيال الجامح ، وترويضه لرسم الصور الشعرية سواء كان ذلك في الرسم او الشعر او الكتابة ٠٠ بل استخدموا الجنون ووقفوا على حافته وأطلوا عليه كما يطل الاطفال على بئر عميق ٠

ولم يقف السرياليون أمام الصدفة مكتوفي اليد ٠٠ بل

ارادوا ان يكتشفوا القواعد التي تتحكم في الصدفة ٠ ٠

وهنـاك لعبة كانـوا يتسلون بها فـي مقاهي باريس وندواتها ، اذ يجتمع عدد من الكتاب والشعراء ، ويكتبون على أوراق صغيرة عدة أسئلة ، ويكتبون الاجابات على هذه الاسئلة في أوراق اخرى ٠ ٠ وفي احدى السهرات اجتمع جمع مـن الادباء ووضعوا بعض الاسئلة :

ما هو الفجر ؟ وكتبوا الاجابة : هو بزوغ الصباح ٠

وما هي المرأة ؟ هي ما نرى فيه انفسنا ٠

وما هو رجل البوليس ؟ هو حامي الامن العام ٠ ٠

والسخان الكهربائي : هو انبوبة مليئة بالماء الساخن ! ٠

والحلم : هو وهم النائمين ٠٠

وخلطت الاوراق بعضها فـو قبعض ٠ ٠وجمعت كـل ورقتين : واحدة مـن الاسئلة وواحدة مـن الاجوبة ، فكانت النتيجة كالآتي :

ما هو الفجر : هو ما نرى فيه انفسنا ٠ ٠

ما هي المرأة : هي بزوغ الصباح ! ٠ ٠

من هو رجل البوليس: هو أنبوبة مليئة بالماء الساخن!٠٠

ما هو الحلم : هو مصباح من مصابيح الشوارع ٠ ٠

ما هو المصباح الغازي : هو وهم النائمين ٠ ٠

ويقول السرياليون ان هذه التجربة تدل على ان أغـرب الصور التي لم يتصورها المنطق ونأنف مـن تصورها لاننـا تعودنا على منطق معين ٠ ٠ أغلب هذه الصور قد يقبلها الخيال ويهضمها ٠ ٠

فماذا لو قلنا ان الحلم هو مصباح من مصابيح الشوارع

وما الغريب في ان نقـــول ان الفجر هو ما نـــرى فيه انفسنا ! ٠ ٠

ولم يكتف السرياليون بتصويـــر الاحلام فـــي رسومهم وكتاباتهم بل وجد المتفرجون في معارضتهم أشياء غريبة شاذة ٠ ٠ وكان شعارهم (ان يخرجوا باي شيء مألوف يستعملـــه الناس استعمالا مألوفا ، عما تعود عليه الناس) ٠

فالمكواة الحديدية لا تستعمـــل الا اذا كانت قاعـــدتها الحديدية ملساء ناعمـــة ٠ ٠ ولذلك نجـــدهم يعرضون فـــي معارضهم مكواة « سريالية » لها قاعدة حديدية ثبت فيها عدد من المسامير الغليظة ! ٠ ٠ وفي احد المعارض يعرض المصـــور «مان راي» قفصا من اقفاص الطيور ٠٠ وضع فيه قوالب عديدة من السكر ، ويدعوا المصور رواد المعرض الـــى ان يحملـــوا القفص ، ولكنهـــم عندما يهمون بحملـــه لا يستطيعون ٠ ٠ اذ يجدون القفص ثقيلا ، ثم يكتشفون أن المصور مان راي قضـــى وقتا طويلا لينحت من الرخام الثقيل قوالب تشبه تماما قوالب السكر ٠ ٠

وفي حالتي المكواة وقوالب السكر يقول السرياليون انهم خرجوا بهما عن استعمالهما الذي تعود عليه الناس ٠ ٠

وخلا لهم المجال واسعا في كتابة الشعر، وبدأوا ينصحون شعراءهم أن يحاولوا جمع اكبر عدد ممكن من الصور التي لا يقبل المنطق أن تكون متقاربة أو متتابعة ٠ ٠ ونجح بعضهم في تحقيق هذا الهدف ، فهم يكتبون عن «الزنجية ٠ ٠ الشقراء» ٠ أو يرسمون ساعة معدنية ٠ ٠أسترخى ميناؤها ولان معـــدنها حتى اصبح رخوا كالعجين ٠

وانطلق كثير منهم يكتب على الطريقة التلقائية التـــي لا

يجمعها غير خيط رفيع من الارتباط ..

ويرسم بريتون في قصيدته المشهورة « السمكة التي ذابت في الماء » عددا من الصور العجيبة والجميلة .. النافورات السحرية ، وطيور البحر ، وعرق النجوم ، وأنهار الزهور ، والسفن التي تنام في العاصفة ، وصدى الدمع والمطر ، وحافة الضباب وشاطىء الجزيرة .. الخ هذا التتابع الذي لا يربطه غير الماء !..

والسريالية ابنة المحنة النفسية والفكرية التي أعقبت الحرب العالمية الاولى . وقد بدأت تجمع فنانين وكتابا وشعراء في المانيا وفرنسا وامريكا خرجوا من خنادق الحرب ! وكان الاوربيون ـ كغيرهم ـ يعلقون كل آمالهم على عصبة الامم ، وعلى ايجاد قانون دولي .. ينظم علاقات العالم ، ويضمن السلام ، ولكن الحرب جاءت بنكباتها .. وبارودها وخنادقها .. والذين نجوا من الموت في الحرب لم ينجوا من القلق ، وخرج هؤلاء ليجدوا هذا العالم يسير من جديد .. وكأن شيئا لم يحدث ! ..

القطارات تسير كما كانت تسير .. والمحطات تبنى من جديد .. والبيوت تقام .. والشباب يجري كما كان الشباب يجري من قبل .. والخطب الرنانة تعلو وتنطلق ..وباختصار عادت الحياة كأن شيئا لم يحدث ! ..

ولعل عودة الحياة الى سيرها المعتاد أذهل هؤلاء الذين عادوا من الحرب ، وما زال دوي القنابل في أذهانهم يصمها ويسدها .. وما زال مذاق تراب الخنادق في افواههم ..

وقد عادوا بعد أن رأوا احلامهم في المستقبل تتفجر وتتناثر تارة من الالغام المدفونة .. وتارة من القنابل الملقاة من السماء ..

وتجمع في باريس الشعراء : بول ايلوار ولوي اراجون وفيليب سوبو ، واندريه بريتون ٠ ٠ ومن الرسامين جريكو وسلفادور دالي وماكس أرنست ٠ ٠وبدأت ثورة السريالية في عالم الفن ٠ ٠ والادب ٠ ٠ والاخلاق ٠ ٠

وبدأوا بتحطيم كل ما يبدو أنه مقدس عند المجتمع ٠ ٠ (وأخذوا يؤصلون تفكيرهم ٠ ٠ (فوجدوا في تاريخ الشعر شخصيات نموذجية تمثل الثائرين والعصاة والمعتصمين مثل الشاعرين الرجيمين شارل بودلير وأرتور رامبو ٠

بل ذهب واحد منهم الى أن نشر في بيان مع جمهور الادباء : «لتحمل مسدسك ٠ ٠ ولتنزل به الى الشارع ، وتطلق رصاصاتك على أول من تلقاه من عابري الطريق » ٠ ٠

وثارت بينهم وبين الادباء الذين تبوأوا مراكز متينة من الشهرة والنفوذ مثل بول كلوديل ٠ ٠ وبدأت بينهم المساجلات والاتهامات ٠٠ ونشروا كتابا اسمه « الجثة » ويقصدون بها أناتول فرانس الكاتب العظيم ! ٠٠

وكتيب آخر عنوانه « خطاب مفتوح الى سفير فرنسا السابق في طوكيو ٠ ٠ المسيو بول كلوديل ٠ ٠ »

وكتبوا كتيبا أسموه « تهافت الشعراء » ثاروا فيه على الشعر الفرنسي التقليدي ٠ ٠ والمعاصر ٠ ٠ وأعلنوا انهم يريدون ثورة كاملة مطلقة في عالم الشعر ٠ ٠

وانطلقت روح عدمية غريبة ٠ ٠ وبدأوا كأنهم يحاكمون كل شيء وأي شيء ٠ ٠ يحاكمون ويصدرون الحكم فورا بالاعدام ! ٠

ويقول لوي اراجون في احدى محاضراته :

« انني ألعن العلم ٠ ٠ ما نحن الا انهزاميو أوربا ٠ ٠ واننا نبذر بذور البلبلة في كل مكان ٠ ٠ اننا نحن الـــذين سنمد في الغد أيدينا الى اعدائنا » ٠

وفي كتاب اندريه بريتون « الخطـى الضائعة » يقـــول الشاعر :

« ان واحدا من المثقفين او المفكرين لم يكن في مستوى أحداث عام ١٩١٤ ، ١٩١٨ » ٠

فقد كانت الاحداث تلطم المفكـــرين كما تصدم الامواج الهائلة وجه سفينة صيد صغيرة ٠٠

وتحولت خيبة الامل الشديدة الـى غضب وقنوط بـــل وشتائم ، وبدأوا يعلنون كراهيتهم للعائلة والوطـن ، وهـــم يقولون :

ـ اننا لن ننتقد العالم كما انتقده فولتير ٠ ٠ اننا سنبدأ العدوان على العالم ! ٠ ٠

وهـــم يثورون على المبادىء الاخلاقية المتوارثـــة ٠ ٠ ويرضعون لبن الماركيز دي ساد ولوتريامون الشاعر الكبير٠٠ (وفي احد الافلام التي كتب قصتها الرسام «سلفادور دالـي» يظهر البطل وهو يتأهب للذهاب للقاء حبيبته ٠ وفي الطـريق يمر برجل اعمى يريد العبور ٠ ٠ ويفاجأ المتفرجون برؤية البطل يهجم على الاعمى المسكين ويدفعه الى الارض ٠ ٠ ويستمـــر بعد ذلك في طريقه الى لقائه الغرامي ٠

ويعلن بعد ذلك مؤلف القصة الغريب انه لم يقصـــد أن يوجع مشاعر المتفرجين ٠ ٠ ولكنه قصد أن يعلن احتجاجه على الاخلاقيات المعتادة ٠ ٠ وتلك النصائح التي تكتب على أغلفة كراريس التلاميذ ، فالنصائح التـي تبنى عليها أخـــلاق فتية

الكشافة والتي ينصح بها الناصحون والمنافقون والمدلسون ليست هي الاخلاقيات التي يحتاج اليها المجتمع ٠

فالمجتمع يحتاج الى بناء أخلاقيات وقيم جديدة ٠ ٠ أكثر عمقا من مجرد اتباع النصائح الجارية والاخلاقيات المتوارثة والخصال الحميدة ٠ ٠ لانك قد تحسن في العلانية ولكنك تسرق في الخفاء ٠

وقد تساعد رجلا اعمى على عبور الطريق ، ولكنك قبل ذلك او بعد ذلك ـ ترتكب جريمة نكراء ٠

وقد كان اندريه بريتون هو أعظم وأعرق أعضاء الحركة السريالية ٠

فقد دخل حركة السريالزم كثيرون من الفنانين والادباء، وخرجوا منها ، ولكنه ظل يدافع عنها حتى النهاية ٠

دخل هذه الحركة جان كوكتو وجول رومان وخرجا منها لانهما يبحثان عن الشهرة والمجد الادبي كما يقول بريتون ٠
ودخلها اراجون وايلوار سادول وانتوانان أرتو وتريستان تزارا ٠٠ وخرجا منها الى الحزب الشيوعي ٠

ودخلها سلفادور دالي وخرج منها الى الفاتيكان !
ودخلها ايمي سيزير الشاعر الاسود وخرج منها الى البرلمان ٠
ودخلها جاك فاشيه وخرج منها صاعدا الى السماء لانه انتحر ٠

ولكن بريتون أسس الحركة السريالية ، وامتزجت في حياته بمراحلها المختلفة المتقلبة ، وحاول أن يمزج فيها آراءه واكتشافاته ٠

وكانت حياة بريتون أهدأ من فاشيه المتوتر ، ومن تزارا

الغاضب دائما ، ومن دالي المنفعل ، ومن ايلوار المتقلب· واذا استثنينا فترة الحرب الاولى التي اشترك فيها بريتون ، نجد حياة بريتون هادئة · تكاد تكون رتيبة (ولذلك عاش بريتون حالما · · ومحبا عاشقا ·

فتجربة بريتون أكثرها الى الداخل · · في الحلم · · وفي الحب ·

وهو يتحدث في كتابه «السمكة التي تذوب في الماء» عن الحب الذي يطالب به السرياليون ويسميه «الحب المجنون» ، الحب المدهش الذي يتحدى كل قيد ، ويقلب كل وضع ·

ويتحدث كذلك عن الجمال الفتان · · ويسميه الملجأ الوحيد للانسان · ويقول انه جمال انقلابي · · لا يدع شيئا امامه الا ويقلبه رأسا على عقب ·

وكما كان الفلاسفة القدامى يعتقدون أن أصل الكون هو النار أو الماء ، فان بريتون يعلن ان العنصر الاول في الكونهو الحب ·

وفي قصة «ناديا» يقص بريتون لقاءه مع عشيقته · وكيف ان للصدفة قانونا يحكم الرغبات البعيدة · لقد كان يحلم بشيء فوقع له ويحلم بشخص فقابله بالفعل · · واحب ناديا · ·

ولهذا ففي اعماق بريتون نوع من التفاؤل الصوفي بالانسان · · وبأن شيئا لم يضع منه حتى الجنة « فليس هناك فردوس مفقود ، بل كل الجنات الموعودة موجودة » · ·
هنا في داخل الانسان ·

ولكن اي انسان ؟

انه الانسان الذي يتعدى الواقع ويفوقه ٠ ٠ ويمكن ان نسميه الانسان الحي الخالد ٠ المطلق ٠

وهذه بالطبع صورة لانسان لا يوجد فعلا ٠٠

ولكن بريتون يبشر به ، وهو الانسان الذي تذوب فيه الفواصل بين العقل واللا عقل ، بين الحقيقة والخيال ، بين الحلم والواقع ٠

وفي المرحلة الاولى للحركة السريالية ، التي تأثرت فيها والمدنية المسيحية ايضا ٠

وفي المرحلة الاولى للحركة السريالية ، التي تأثرت فيها بالدادايزم ، كانت السريالية غاضبة ٠ ٠ وثائرة ٠

ولهذا اهتم بريتون باثارة العصيان ضد المدنية الغربية ٠ ٠ حتى يرفضها الناس ٠ ٠ وفي هذه المرحلة كان يكتب : « افتحوا السجون ٠ ٠ سرحوا الجيش ٠ ٠ لا يوجد شيء اسمه الجريمة » ٠

واختلطت هنا السريالية بلون من العدمية كما يلاحظ البير كامو اذ يقول : «**انها عدمية ٠ ٠ عصيان دائم ، وتخريب منظم ، وعبادة للسخف ، فالسريالية في بدايتها كانت محاكمة لكل شيء ٠ لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد** » ٠

ولكن ماذا بعد العصيان ؟

رأى بريتون أن يخترق حدود الانسان الغربي – او البورجوازي – وأن يعبر حدوده الى مدنيات جديدة ٠ ولذلك استهواه فن الزنوج ٠ واستهوته الاكتشافات العلمية التي قالت ان بعض القبائل الزنجية لا تعرف التفرقة التي نعرفها

بين الموت والحياة · وانهم لا يعتقدون ان هناك موتا على الاطلاق · واذا مات فرد من القبيلة اعتقدوا انه انتقل الى مكان وسرعان ما يعود ·

وانهيار الفاصل بين الحياة والموت او بين الحقيقة والخيال هو الذي جذب بريتون الى احترام مدنية الزنوج والاهتمام بها ·

ثم دخل بريتون الى داخل النفس ، وعبر حدود العقل ، وتوغل في اللا وعي · وقد اسعفته دراسات فرويد واكتشافاته عن العقل الباطن والاحلام · فكانت نقطة البدء في رحلة طويلة حاول فيها بريتون ان يدعو الى تحطيم الفاصل بين الواقع والخيال ، والحقيقة والحلم !

ولكن ماذا يحدث لو اننا حطمنا تلك السدود بين الحقيقة والخيال ؟ ·

يقول بريتون : تحدث الثورة السريالية !

وكما قال ماركس : « غيروا العالم » فقد صاح الشاعر رامبو : « غيروا الحياة » · ·

وبريتون لهذا يعجب بالماركسية ·

ولكن بريتون احتار : أي الماركسيين أقرب الى نظريته!

واخيرا وقع اختياره على ليون تروتسكي، الذي ربطتهما صداقة بعد التقائهما في المكسيك وقبل اغتيال تروتسكي · وتدعمت الصداقة بينهما لان تروتسكي مغال ينادي بالثورة الاجتماعية «الدائمة» على حد تعبيره ·

وعندما انعكست هذه النظرة في الادب والفن كانت عجبا ·

فبريتون يرى انه اديب ضد الادب ، وفنان ضد الفن ، وشاعر ضد الشعر ٠

ويقصد بذلك ان الاديب حين ينقل فكرته وشعوره او خياله الى الورق انما يخرج بها عن حالته الاولية : حالتها الطازجة النابضة الى صياغة باردة ٠ ٠ وتصبح شيئا آخر غير الفكرة والشعور ذاته ٠ **والسريالزم عند بريتون يجب أن تتخلص من الصياغة ، لانها تريد ان تقدم للقارىء الاحساس والشعور والفكرة ذاتها ٠ ٠ كل ذلك طازجا او «بدمه»** ٠

وعلى هذه الاسس ، أنشأ بريتون مكتبة يقرأها السورياليون ، ووضع قائمة ممنوعات على السرياليين تماما كما يضع البابا قائمة المنوعات على أتباعه ٠

فبريتون ينصح بقراءة سويفت لجرأته في الخيال ، والماركيز دي ساد لوقاحته ٠ وبودلير لانه شاعر رجيم،ورامبو لانه عبقري ضائع ، والفريد جاري لانه مضحك باكي ، وفرويد لانه قفز اسوار العقل ، وماياكوفسكي لانه شاعر ثائر منتحر٠٠ وغيرهم كثيرون ٠

بينما ينصح بريتون بتجنب كتابات فرلين والفونس‌دوديه وكورتلين وهنري بيرجسون ودور كايم وبول كلوديل وبيجي ومارسيل بروست وفرانسوا مورياك وغاندي واندريه مالرو ٠ ٠ لانهم جميعا محافظون او متحذلقون او منافقون !

ويأتي بعد اندريه بريتون الرسام العبقري سلفادور دالي

وقد كان سرياليا قبل ان تبدأ الحركة ٠ في طفولته‌بمدريد ٠ ٠ نزق وتدلل وحساسية شديدة ٠

قال : انه تمنى في السادسة ان يصبح طباخا ، وفي السابعة ان يصبح نابليون ٠ ٠ ٠ ومنذ ذلك الحين لم يتوقف‌عن الطموح ٠ ٠ حتى أصبح في النهاية عبقريا ٠ !

وقد تمنى ان يصبح طباخا ، لان المطبخ كان المكان الوحيد الذي يمنع من الدخول اليه ٠

وفي السابعة احب فتاة في مثل سنه ، كانت عائلتها من الارجنتين وتسكن الطابق العلوي في منزلهم ٠ وكانت هناك في غرفتها صور تكبيرة بالالوان لنابليون ٠ وكان يسترق النظر الى فتاته كل غروب ، والعائلة مجتمعة تشرب الشاي ٠ وتمنى سلفادور في ذلك الحين لو كان نابليون ٠

ويعتقد دالي ان حياته كانت سلسلة متوالية من الاخطاء ٠ وأبرز شيء في تجربته مع نفسه انه كان يحس فجأة بدافع لا يقاوم ليأتي بشيء مفاجيء يذهل الجميع ويثير الاضطراب والفوضى والانزعاج ٠

في الخامسة كان يلعب مع ابن الجيران ، وكانا يركبان دراجة صغيرة ، ووصلا الى احد الكبارى ، ووقفا ينظران الى الماء ، واذا به يحس فجأة بدافع قوي من داخله يسيطر على نفسه تماما ٠ ٠ فيدفع ابن الجيران ٠ ٠ ثم يجري ٠

وفي السادسة يمرض ، فيحضر اليه طبيب العائلة العجوز ، ويحس بنفس الاندفاع فيقوم وهو لا يقوى ، ويصفع طبيبه صفعة تدهش العائلة ، وتجعل الطبيب المسكين يبكي ٠

وفي صباه ، يأتي حركات غريبة تدل على الجموح ، اذ يقفز وهو في السادسة عشرة من عمره من الدور الثاني في المدرسة ٠ ٠ الى الفناء !

وعندما يلتحق دالي بمدرسة الفنون الجميلة يكتشف قوة أخرى في نفسه هي قوة التوهم والخيال ٠

كان ذات يوم في حصة الرسم ، وكان عليه ان ينقل الى لوحته صورة سلم مطبوعة ٠ وانهمك دالي في العمل حتى مر عليه استاذه ، ففوجيء الاستاذ بأن دالي يرسم صورة اخرى ٠ ولكن دالي كان ينظر الى صورة السلم ، ويرسم شيئا آخر ٠

فقال له الاستاذ :

ـ ماذا ترسم ؟ انها صورة العذراء !

ـ العذراء ! · انني انقل صورة السلم ·

وعرض دالي على استاذه الصورة التي ينقـــل منها · فدهش الاستاذ :

ـ ولكنها العذراء ! ·

ـ انها السلم !

واضطر دالي في النهاية ان يعتذر، بعد ان ادرك انه حين ينظر الى شيء ، يتصور شيئا آخر ! ·

وفي هذه الاثناء ، تحسس دالي في نفسه قوة الوهم التي تطغى على الواقع ، والخيال الذي يغطي المرئيات، وقوة النفس التي تتغلب على العالم الخارجي · واخذ يروض هذه القـوة ، فيرسم ويصور ما يهيء اليه ، وما تهتف به نفسه · · وقـــد تطورت هذه الطريقة حتى اصبحت معروفة بالبرانويا الناقدة·

ولكن اخلاصه لفنه . لم ينجه مـن الوقوع فـــي مآزق نتيجة اندفاعه الذي لا يروض ·

ففي امتحان التخرج ، كاندالي يتمنى او يفكر في سؤال معين ويعتقد انه سوف يجيء في الامتحان الشفوي ·

وعندما دخل غرفة الامتحان ، وجد ثلاثة اساتذة فظـل

صامتا لحظة امامهم · وفوجيء دالي بأن الاستاذ يسأله نفس السؤال الذي كان يتوقع انه سيسأل فيه ·

وأحس دالي بقوة شديدة تدفعه للوقوف · فوقف قائلا :

ـ آسف · أنا لا اقبل ان يمتحنني اساتذة أغبى مني ! ·

وصعق الاساتذة ، وحولوه الى مجلس تأديب ، ففصل من مدرسة الفنون ، ولم يحصل على شهادته ·

وظل مدة يرسم في اسبانيا وتعرف بالشاعر جارسيا لوركا ثم فكر في الانطلاق الى باريس ·

وفي باريس قابل دالي ابن اسبانيا الاخر ، بيكاسو ، وعرض عليه كتلميذ لوحاته قائلا :

ـ لقد أتيت اليك قبل ان اذهب الى متحف اللوفر ! ·

وتساءل دالي بعد ذلك عن الطريق الذي يمكن ان ينقله من مدينة برشلونة «تلك القطعة من السكر المذابة في طبق من العسل» الى قلب باريس «مدينة الطموح» ·

وجاءته الاجابة من رسام سريالي مشهور هو جوان ميرو :

ـ المهم هنا أن تكون عنيدا · النجاح هو العناد · ألعب بعض الالعاب الرياضية ، واشتر لك ثياب سهرة ·

ولكن دالي لم يستطع شراء ثياب سهرة ، بل ولم يستطع شراء طعام يأكله · فقد قطع عنه ابوه كل مساعدة · ووقع في مأزق لان اسمه لم يكن قد عرف · · بعد ·

وتعرف دالي بجلا زوجة بول ايلوار السابقة ، وربطتهما أقوى علاقة يمكن ان تربط امرأة برجل ، حتى انه كان يوقع على لوحاته التي يرسمها بريشته باسمه واسمها معا ·

وتمكنت « جلا » ان تخفف عنه عبء الفاقة ، فكانت تساعده وتلهمه · · ويقول انه كان يرجع الى البيت كل يوم في الساعة الثانية حين يحين موعد الاكل · وكان لا يجد اكلا · ·

ثم يستريح ، وينزل من البيت ٠ ٠ وهكذا «ظللت أذهب في موعد الغداء ، واجلس على المائدة ، وانا اعرف انه لا يوجد طعام ٠ ٠ ومع ذلك فقد كانت هذه هي السعادة ! » ٠

ووجد دالي في حركة السرياليين حقلا واسعا لطباعه الجامحة وعبقريته الخصيبة ٠

وجدهم يصورون احلامهم ، فتزعم دالي حركة تصوير الخيال والحلم والهلوسة وغير المعقول ٠ ٠

واستخدم في تصويره الدقة الفوتوغرافية ، وخداع البصر ٠« فالرسم عندي تصوير فوتوغرافي أرسمه باليد للاشياء غير المعقولة المحسوسة ، ولعالم الخيال على العموم»٠

وأمكنه ان يخرج بالمنظور او المرئي الذي تعودنا عليه الى شيء جديد تماما ، رائع يهز العواطف ، ويدهش الحواس٠ ففي رسومه زرافة رقبتها مشتعلة بالنيران ، وفتاة تقف تحت جرس الكنيسة ، وفتاة في صدرها ادراج، وعلى رأسها خضرة مونعة ٠ ٠

وقد أمكن دالي ـ على طريقته الاكاديمية الدقيقة ، أن يجسد كثيرا من الاحلام ، حتى اصبحت صورة تقنع بأن الخيال حقيقة ملموسة ٠ ٠ لا غرابة واهمة ٠

واذا كانت السرياليزم قد نبهت الى أن للخيال منطقا ، وللجنون نظاما ٠ وفتحت ابواب الهذيان والاحلام والهستيريا لتصب ما في جوفها من تجارب ٠ ٠ فان دالي تميز بذلك النوع من الجنون ، الذي يطلق عليه «البرانويا» ، وهو الذي يجعل المريض يتصور اشياء واشكالا غير التي يراها ٠ والمدهش في سلفادور دالي انه تمكن من السيطرة على هذا النبع الفياض والقوة الجموح ، وروضها ، ونقلها الى صورة جميلة ٠ ٠

بالالوان ٠

ولم تخل حياة دالي ، بعد ان نجح ، من بهلوانية وتصنع ٠٠ فكان يدخل المعارض السريالية في حفلة الافتتاح من النافذة لا من الباب ٠ ٠ وكـــان احيانا يهشم الباب الزجاجي بعصاه وسط المدعوين المشدوهين ٠ ٠

وتعقب كثير من الذين يملأون حياتهم الملل مغامرات دالي المتيرة بكثير مـــن الاعجاب ٠ وأعجب دالي لهـــذه الشهرة ٠ فحضر مرة احدى المحاضرات في لندن ، واذا به يلبس ثياب فارس من فرسان القرون الوسطى٠٠ ولكنه في نهاية المحاضرة لم يستطع الخروج من ثياب الفرسان ، حتى احضروا له رجال المطافىء ٠ ٠ وهو يكاد يختنق ٠

ودعته بلاده اسبانيا بعد ان اصبح من أشهر رســـامـــي العالم ، ليلقي محاضرة عن فنه ٠ وحضر الوزراء والفنانـــون، وابتدأ يلقي محاضرته ، وفي وسط المحاضرة صرخ دالي يقاطع نفسه :

ـ لقد انتهت المحاضرة ! ٠

واخذ قبعته ، وانصرف بين ذهول الحاضرين ٠ ٠

وانطلقت صيحة سلفادور دالي الشهيرة : «لكي تستطيع ان ترسم يجب ان تكون مجنونا ! ٠ ٠ »

وسمع الامريكيون بهذه الاعجوبة الاسبانية ، فدعوه الى نيويورك حيث قفزت اثمان لوحاته الى آلاف الدولارات ٠

وابتعد دالي عن حلقة السرياليين ، الذين اعتبروه خائنا لقضيتهم ، يسعى وراء الشهرة والمال ٠ ٠ ثم ارتمى دالي بعد

ان أصبح في غاية الثراء في احضان الدين ، حيث بدأ يرسم صورا عديدة للمسيح ٠ ٠ ومنها صورة أهداها الى البابا ٠ ٠ وصورا أخرى عديدة ٠ ٠ تعرض في نيويورك وباريس ومدريد ٠

ولا يقل بول ايلوار الشاعر اهمية عن سلفادور دالي الرسام ، وقد غير ايلوار اسمه مرتين ، مرة ليدخل الادب ، ومرة اثناء الحرب ٠ ٠

فاسم ايلوار الحقيقي : أوجين جراندیل ٠ ولكنه عندما انخرط في صفوف الشعراء اختار اسم بول ايلوار الذي اشتهر به ٠ أما الاسم الثاني فهو : «جان دي هو » ، وقد اختاره عندما كان في المقاومة اثناء احتلال باريس ٠ وبعد انتهاء الحرب عاد اليه اسم « بول ايلوار » ٠ ٠

وقد ولد «أوجين جراندیل» في مدينة سان دينيس في شمال فرنسا ٠ وأبوه كان كاتبا حسابيا ، وأمه كانت تشتغل خياطة ٠ وانتقلت العائلة الى باريس في عام ١٩٠٨ ، ولكنه أصيب بمرض الصدر ، فاضطر الى السفر الى سويسرا ٠ وبقي فيها عامين عاش فيهما على الوحدة ٠

وتفتح شباب ايلوار حين كان الشعر الفرنسي على ابواب ازمة في الشكل والموضوع ٠

وتعلق ايلوار بأشعار أرتور رامبو وجيرار دي نرفال ، وهما من غلاة الرومانسيين ، وبلوتريامون وجيوم أبولينير وهما من الشعراء المجددين ٠

وكان الادباء المشهورون « الرسميون » يجهلون هؤلاء الشعراء فاكتشف فيهم ايلوار ينابيع جديدة للالهام والتعبير ٠٠

وتيقظ ضمير بول ايلوار على مأساة الحرب العالمية الاولى ، اذ جند عند اعلانها ، واشتغل في البداية ممرضا ، ثم

انتقل الى سلاح المشاة · وكتب اولى قصائده · · وفيها رائحة الحرب والموت والرغبة في انقاذ الحياة · ·

ومن افتتاحية قصائده الاولى « ليس أشق من الحرب في ايام الشتاء ! »

وفي قصيدة اخرى يقول :

« في كل ارض انسان معذب » · ·

« ودماؤك تمزق الارض » · ·

« وقد تركوك على حافة احدى الحفر » · ·

ولم يكن ايلوار قد اتصل بالاوساط الادبية بعد ·

وكان يطبع قصائده على «الرونيو»، فاذا وصل الى باريس بعد الحرب يتعرف على لوي اراجون وفيليب سوبو ، ويشترك معهما في مجلة «ليتراتور» · ويهاجم «تلك اللغة التي لا تنفع الا للثرثرة » ، ويهزأ بالزوائد اللفظية ويـــدعو ان يكون التعبير مباشرا حتى يكون صادقا وان يحرر من قيد الوزن · ·

وفي زيورخ تتكون حركة فنية وادبية « ارهابية » هـــي «الدادايزم» تجمع الشعراء والفنانين من العائدين من الحرب، الساخطين على مأساتها الدامية · ويشترك ايلوار مع تريستان تزارا الشاعر الفرنسي الذي اسس حركة الدادايزم ·

ويكتشف ايلوار عالم الاحلام · تفرقع اكتشافات فرويد في الاوساط الادبية والفنية في اوربا · وتتكون حركة السريالزم التي تعلن انها تنقب في عالم الاحلام والخيال حتى تعيد للشعر والفن شبابه · ويتقابل ايلوار مع الرسامين المجددين ماكس ارنيست وجيريكو ، وتربه بارنيست صداقة تمتد طويلا ·

ويكتب ايلوار في عام ١٩٢٤ قصيدة «الموت خوفا مـــن الموت» التي يصف فيها قلق العالم ، ثم «عاصمة الالم» التـــي

يصف فيها قلقه الخاص · وينظر اليه على انه أمل الشعر الجديد ·

ولكن ايلوار يختفي من باريس فجأة · ·

ويحسبون انه مات · · ولكنه يكون قد سافر الى مارسيليا ، ليركب أقرب سفينة تذهب به الى الشرق الاقصى·

ويتجول شريدا سبعة اشهر بين الهند والملايو والهند الصينية وسيلان · ·

ولعله كان يبحث عن الهام كالذي وجده حين سافر الى تاهيتي ، ورسم أروع صورة ولكنه يعود من الرحلة فجأة ايضا وهو خاوي القلب قائلا :

ـ لقد كانت رحلة سخيفة ! · ·

وعندما يعود الى باريس ، يجد الحركة السريالية قد نظمت صفوفها ، ويجد محركها الاول أندريه بريتون ، قد أذاع البيان الاول للسوريالست ، وتكون الحركة قد دخلت في معارك ادبية مع الادباء القدامى · · واشتبكت في عدة فضائح مثيرة · · وتظهر جريدة تعبر عن الحركة ، وينشر ايلوار فيها«موجة الاحلام» ، ثم يكتب «عندما لا يتوافر الصمت» و «دفاع عن المعرفة» و «حب الشعر» · ·

« · · انني أنشد الفرحة الكبرى لانني أغنيك نشيدا
الفرحة الكبرى لانك لي · · ولانك لست لي · ·
وتعرفي عليك في براءة · ·
فرحة انتظارك · ·
انت يا من تمحين النسيان والجهل والامل · · وتمحين

الغياب وتضعينني في الدنيا ٠ ٠

انني أغني للغناء ٠ ٠

وأحبـــك ٠ ٠

فأنشد السر بملء فمي ٠٠
ويخلقني الحب ، ويكتب لي الخلاص ٠

ويشترك ايلوار في عشرات البيانات والمعارض الفنية ، ويكتب مقالات عديدة في مجلات السرياليين ٠

وفي غضون عام ١٩٣٠ كانت تعاني السوريالية أزمـــة شديدة عرفت بازمة اراجون ٠ اذ يشترك لوي اراجون وجورج سادول في مؤتمر خاركوف الدولي للادباء ، ويعلنان تأييدهما لقراراته ، فيثور عليهما بريتون لانهما يريدان الزام الحركـة السريالية بواجبات سياسية ، وهو يريد ان تظل «نقية» على حد تعبيره خالصة من كل التزام ٠

وينشر اراجون قصيدته المشهورة «الجبهة الحمراء» التي يعلن فيها سخريته اللاذعة المريرة ممن يترددون على مطعـــم مكسيم أفخم مطاعم باريس ٠ ومن المتحذلقين ، ويتحدث عـن ثورة روسيا بكثير من الحماس ٠ ٠

وينشق اراجون ، وينضم الى الحزب الشيوعـي ٠ ٠ ٠ ويفتح الباب لكثير من السرياليين ٠ ٠ ومنهم ايلوار وتـزارا وجورج سادول ٠ ٠ وغيرهم فينضمون فيما بعد ٠ ٠

ولكن ايلوار يظل بعد انشقاق اراجون مخلصا للسريالية وينشر قصائد جميلة منها : «الوردة العمومية» و « العيـــون الخصيبة »و «هل يمكن للاناء ان يكون أجمل من الماء ! » ٠

ويتفجر في اشعار ايلوار حب للحب يشبه القداسة،

اذ يضع المرأة في قلب الكون ، وكأنه يتعبد ٠ ٠ ويحرر شعره من الاوزان القديمة ، ولكنه يحتفظ بميزة الصفاء والصـــورة المنطلقة العجيبة وبموسيقى ساحرة تسري في عروق كل كلمة، وتستمر الى آخر سطر ٠

يقول ايلوار في ديوانه «عاصمة الالم » :

عيناك عادتا من بلدة متحكمة ٠ ٠

لا يعرف أهلها النظرة ٠ ٠

ولا يعرفون معنى الجمال ٠ ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

أقفلت عيني ٠ ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

وكما يبدو ان روح النهار هو البراءة

فروح الكون أجمع ٠ ٠

عيناك الصافيتان ٠ ٠

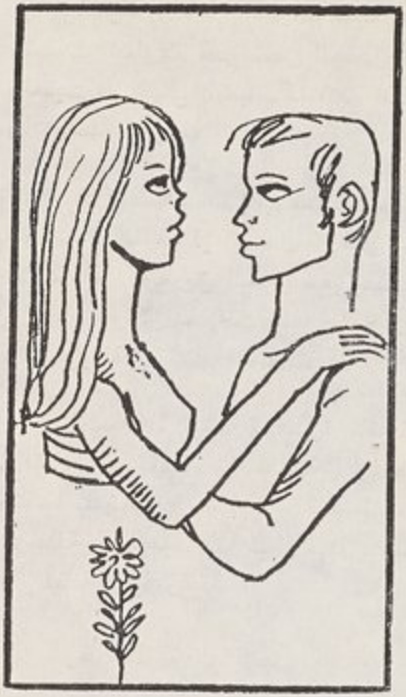

الحب عندنا يختلط
بفكرة الحرام في الريف
والعيب في المدينة .

الحب .. بين الحرام والعيب

تمنيت لو قرأ الشباب شيئا عن تاريخ مصر القديم وتعلقت انظارهم في نفس الوقت بالفضاء وتقدم العلوم ٠ وتمنيت الا ينسى الشباب ثقافتهم العاطفية في الحب ٠ والصحة ٠ والرياضة ٠ وعلم النفس ٠

فلو انصف الشباب مستقبلهم ، لتخيلوا اننا مقبلون على مجتمع لا يعترف فيه بفضل او قدر لانسان ، الا بالعمل والقيمة الانسانية ، وطريق السعادة في هذا المجتمع لا يكون بما تملك من مال ، ولكن بما انت عليه من حال ٠ والحال هنا هو الثقافة والعلم والقدرة على السعادة ٠

فالسعادة ايضا قدرة ، تستطيع اكتسابها بالجهد والتفاؤل ، وبالعلم والثقافة ٠ والحب موهبة تخلق فينا ، ولكننا نستطيع ان نكبتها ، فنشمئز من الحب ، ونضطهد العاطفة ، ونرميها بما ليس فيها ، ونستطيع ان نحول العاطفة الى متعة راقية رقيقة ٠

وقد اشتهر في كتب الادب ما كتبه السابقون من اشعار الحب ، كما اشتهرت قصص المجانين والمتيمين الذين خلدت آلامهم ، فصاغوا من آلامهم أخلد الشعر ، وأعطر السير ،وانبل المهالك ٠ فالحب ، احيانا ، مهلكة ، ومقتل للعاشق المخلص الذي يخلص في عشقه ٠ ولذلك فالحب يرتفع الى أرقى ذرا الحياة ، وقد يصعب سبيله فيصبح قاتلا لا يقبل شفاعة ولاعذرا ولا مزاحا ٠

فقد يكون ظاهره هو اللهو ، ولكنه في حقيقته قرب من المعرفة ، واقتراب من أعمق خلجات الانسان ٠ فالذي لا يحب لا يستحق الحياة ولا يستحق شرف العيش ٠ لان الحياة معاناة ومن كابدها عاشها ، ومن عافها خرج من الحياة قابضا على

الريح او حاصدا للعاصفة ، والعاطفة عاصفة · وقد تكون نسيما · وبين العاصفة والنسيم تهتز انفاس الحياة ·

وقد كان الجيل الذي سبقنا يهتم اشد الاهتمام بالحب العذري والعفيف الشاق الذي يؤدي بصاحبه الى الهلاك ، فالموت شقيق الحب · ولا يوجد حب حقيقي الا يقذف صاحبه ، ويجرفه الى الاطلال على ما يشبه الهلاك لو فارقه الحبيب ·لان الحب ـ اذا عمق ـ كان هو سر الحياة ، وأكسيرها ، وسر دوامها · ولفرط حساسية المحب لا يستطيع ان يتصور حياة ولا يجرؤ ان يرسل نفسا الا الى جوار حبيبه · فاذا زال الحب، او بعد الحبيب ، أحس ان انفاسه تنزع منه انتزاعا ، وتعود الى صدره كما تعود الاثقال والحجارة ، كأنه يتنفس الحجر الثقيل والقهر القاهر ·

وقد شب كثير منا ، واحاط الكتاب عندنا هذا الحب العذري بهالات من اللآلاء ، ونحتت الاشعار العربية تماثيل ممشوقة من البلور وسط حدائق غناء ـ مدها لنا الخيال في الصباء وبقيت عطرا فواحا حتى بعد ان مضى الصبا وشرخ من الشباب !

ولكن فكرة الحب اختلطت عندنا بالخوف · بفكرةالعقاب والحرام في الريف ، او العيب في المدينة ·

والحب ككل شيء مقدس ، اختلطت فيه التحريمات · ولكنها اوشكت لفرط هولها في خيالنا ان تصيب قلوبنا بالخوف والرهبة والارتجاف · · فماذا يكون رأي هذا الجيل القادم الذي سيفرض ـ وهذا من حقه ـ ما يكتشفه دون ان يأخذ شيئا من نصح الاباء او الاجداد ؟!

ولا يمكن ان يذكر الحب ـ عند العرب ـ دون ان تذكر

رسالة ابن حزم الفقيه المفكر السياسي وعنوانها المشهور «طوق الحمامة» وأروع ما فيها انه لا ينقل عن الآخرين ، ولكنه يروي أطرافا من ملاحظاته وتجربته الخاصة · وهو في هذا يسبق كثيرين من علماء النفس المحدثين ، لانه ظهر في اوائل القرن الحادي عشر في الاندلس وكانت الاندلس على ازهر ما تكون النهضة الفنية والفكرية ، كما كانت على اشد ما تكون في الفوضى السياسية والاضطراب في الحكم وفي مثل هذه الفترات ، تبرق بوارق العبقرية ، وتظهر المؤلفات والكتب النفيسة ، ففي عصور الحيرة يتلفت الناس الى ما يهديهم · · وقد تكون الهداية في الفكر او الحكم او العلم، وقد تكون ايضا في اخلص العواطف الانسانية ، واعمقها مكمنا ، كالحب والعاطفة · ويقول ابن حزم ان الحب لا يوصف · بل لا بد من معاناته حتى تعرفه · وهو يقترب من تعريف الوجوديين المعاصرين حين يقولون ان الحياة كلها معاناة ، ولا بد لمعرفتها من القلق بها ، والحيرة معها ، وفيها · ·

ويفرق ابن حزم بين الحب والشهوة ، لان الشهوة هي حب الصورة الحسنة ، اما الحب فهو أعمق من ذلك الارتباط الخارجي ·

فلا يعقل ـ كما يقول ابن حزم ـ ان يحب الانسان من اول نظرة لان هذا الحب شهوة ورغبة · وهو يتفق في ذلك مع علماء النفس المحدثين · ·

ولا يمكن ان يحب الانسان اثنين · فالحب وحدانية ·

وعلى الرغم من ان العصر الذي عاش فيه ابن حزم كان يسمح بالجواري وتعدد الزوجات فانه نبه الى وحدانية الحب·

ولا يختلط الحب بالملل · لان المحب شيء والملول شيء · والملول طالب لهو ومتعة ·

فاختلاط الحب بالملل أقرب الى شخصية دون جوان ،هذه الشخصية الادبية التي ابتكرها في الادب العالمي قسيس اسباني ، ثم تجردت بعد ذلك من مغزاها الديني ، واصبحت صورة للهوى والنزوة ٠

صورة تفزع الاخلاقيين

ولا تشبع هواة النفس الانسانية ٠

وقد ولدت هذه الصورة الادبية الرائعة في اسبانيا في القرن السابع عشر بقلم الكاتب الاسباني ترسو اي مولينا ٠ ونجد ابن حزم ـ في الاندلس ايضا ـ ينتبه الى هذا الدون جوان العربي ، وكان اسمه ابن عامر محمد بن عامر ٠ وكان هذا الرجل الوسيم الشاب كما يقول صاحبنا ابن حزم : « يرى الجارية فلا يصبر عليها ، ويحيق به من الغم والهم ما يكاد ان يأتي عليه حتى يملكها ، فاذا أيقن انها له عادت المحبة نفارا ، وذلك الانس ترددا ، والقلق عليها قلقا منها ، ونزاعه نحوها نزاعا عنها ٠٠ هذا كان دأبه ، حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات الآلاف من الدنانير عددا عظيما وكان مع هذا من أفضل الادب والحذق والنبل والذكاء والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض ٠ وأما حسن وجهه ، وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه ٠٠ ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ، ويتعمدون الحضور على باب داره ٠٠ لا لشيء الا للنظر اليه ٠ ولقد ماتت من محبته جوار كن علقن اوهامهن به ، فخانهن ، فصرن رهائن البلى ، وقتلتهن الوحدة ٠

وأما اخوانه ، فانه تبدل لهم في عمره ـ على قصره ـ مرارا ٠

وكان لا يثبت على رأي واحد · حينا يكون في ملابس الملوك ، وحينا يكون في ملابس الفتاك ! » ·

والعجيب ان هذه الصورة التي رسمها ابن حزم لدون جوان الاندلس ، نجد كثيرا من ملامحها تتكرر في اسبانيا بعد خمسة قرون حين يكتب ترسو أي مولينا مسرحيته المعروفة « ضيف التمثال الحجري » ، اذ يبتكر هذا الاديب الاسباني نموذجا لنبيل ، قيل انه عاش أيضا في عصره ، وكان من حكاياته ونزواته وفضائحه ، ما ألهمه الكثير من الوقائع ، التي سجلها وحورها في مسرحيته ·

فدون جوان الاندلس جميل مهيب نبيل ذكي متوقد · وهو الى جمال صورته وطلعته وغد الحديث ، عذب المراوغة · بل ونرى فيما يرويه ابن حزم بعض الشبه بين النموذجين في حب الدون جوانين للتنكر في ملابس غريبة !

فالرجلان تتفجر في جوانبهما العاطفة القلقة التي تكاد تودي بهما ·

وكما يقول دون جوان في المسرحية : الحب اشبه شيء بالطفل ، يقلقه المضجع اللين · ولهذا فدون جوان شخصية قلقة مقلقة · ولكنه في المسرحية شخصية ضارية فتاكة يفتك بالاميرة والقروية · ويتقلب بين الكبرياء والحساسية ، وبين الادب والقسوة · طريد مطارد · تلقيه عاصفة على الشاطىء · ويشرف على الغرق · فتلتقطه ـ ويا لسوء طالعها ـ صيادة شابة · ناضرة الاهاب · فيسمعها اعذب الاحاديث واكذبها · تراءت له كالحياة ـ فهي منقذته ـ ولولا يدها لغرق في لجة الموج وطوته دياجير الموت · فيسمعها خفقة من خفقات قلبه الحبيس · وتتغنى له بشرفها الذي يشبه الزجاج · تبقعه ولو انفاس الفراش وتجرحه ادق الاظافر وانعم الايادي !

فاذا بدون جوان كالبازي ، خادع شرير ، لا يرعى حرمة لكوخ ولا لقصر · فهو في قصر الاميرة الغنية مراوغ نذل · وفي الكوخ مراوغ ناعم !

ثم يمضي دون جوان في طريقه الى اشبيلية ، وقد سبقته سمعته المترنحة · واذا به يسمع من احد اصدقائه ان من يحبها لا تحب زوجها المقبل ·· فاذا به يتخفى في جوقة موسيقيين · ويتنكر كصاحبنا الاندلسي ـ في ثياب المركيز ، ويحاول خداع الفتاة ·· فاذا بها تصرخ مستنجدة لشرفها · فيفزع ابوها العجوز ·· واذا بدون جوان يستل سيفه ليقتل المركيز · ويهوى العجوز ، فينزل عليه اللعنات ، وهو يحتضر· ودون جوان يروغ كالعادة ، ويبتعد عن القصر ، تاركا جثة الشيخ ، ويمر باحدى القرى ، فيسمع عن عرس لاحدى القرويات ، فيرحب القرويون بهذا السيد المهيب الطلعة ، الرشيق اللحظ ، الا الزوج الذي يتطير منه ·

واذا بخادم دون جوان يستعد له بالخيل القوية ، حتى يهربا بها ، حين تقع الواقعة ، لانه ادرك ان سيده لن يترك القروية في سلام · فكل قصة عنده الى نذالة ، وكل مغامرة الى فرار ·

ودون جوان لا يضيع وقتا · فهو يتسلل الى قلب القروية يلتقط اليها من السماء النجوم· ويقدم لها من المعسول ما يخلب العقل ويثير الوجد ويفك العظام · رجل مدرب وفتاة خام ! وهو يعد نفسه بلحظة حب ، مثل الابد · ليس لها غد ·· يموت لو لم يفز · فاذا بالصبابة تسيل من لفتاته وغمزاته الذكية · معذب ولهان · مجنون وشحاذ من النبلاء · يشحذ المجون والجنون · فاذا استسلمت مسح قلبه كما يمسح الاكول فمه، ليستسلم لنوم ثقيل ، او تعسيلة البطنة ، لا يريد احدا ان يوقظه او يطالبه بالحساب ··

ولكن دون جوان لا يحيا بلا عاقبة ، فسحب الآثام التي غرسها في كل سماء وارض ، من ايطاليا الـــى اسبانيا وفي القصور والاكواخ ، ومع الاميرات والقرويات والصيادات ، وبين الحريصة المتشككة ، والذلول الساذجة ، كلهـــا تتجمع نذر شر فوق رأسه ٠

وتقول مسرحية الكاتب الاسباني ان هذا التمثال الذي اقيم للشيخ الذي قتله دون جوان ، حين فاضت روحه من طعنة سيفه الغادر ، يعود الى الحياة ليدخل علـــى دون جوان في الظـــلام ٠

ويجلس التمثال المرمري على مائدة دون جوان ٠

فاذا بالشيخ شبح يتكلم بصوت حشرجي آت من الظلمة السحيقة ٠٠ واذا به ـ في نفس الوقت ـ يتناول الطعام كما يتناوله البشر من الاحياء فيكاد دون جوان يطير صوابه ٠

ويدعوه الشيخ الى زيارته في الكنيسة ، فيذهب اليه ، فيدخل على الشيخ الذي يمد له مائدة وســـط القبور ، فاذا بالمائدة مليئة بالافاعي ، واذا باصوات رهيبة ثقيلة ، ضخمة الرنين ، تأتي اليه من جوف الكنيسة :

ـ كل موعد وكل دين له وفاء ٠٠

واذا بالشيخ التمثال ينهض ٠٠ ويمد يده الى يد دون جوان ٠٠ فيحرقها ، وهو يقول :

ـ هذه عينة متواضعة من نار الجحيم يوم الحساب ٠

ويطلب دون جوان الرحمة ، ذليلا ، فلا تقبل له توبة ٠

ويخر فوق المسرح محترقا ، يبتلعه القبر والنيران ٠

وهكذا تنتهي قصة دون جوان الاسباني ، امير اللذات العابرة ، الى حساب عسير · فهو لم يلتفت الى نذر الحساب التي مرت في حياته حين غرق ، ونجا ، وحين هـرب ، ولم يلحق به احد ·

وتنتهي قصة دون جوان ـ الاصلية ـ الى العذاب · فقد كتبها قسيس ، والبسها ثياب الحـرام والتحريم · وان كان الادباء ـ من بعده ـ خلصوا الاسطورة مـن هذه العاقبة ، وكتبوا فيها عشرات المسرحيات والكتب ··

والذي يهمنا ان اسطورة دون جوان التـي ظهرت في اسبانيا ، وتتنازعها ايطاليا ايضا ، انما ظهرت مثيلتهـا في الاندلس ، في عصر شبيه بعصر النهضة وعصـر الامـراء والوجاهة والفروسية ·

وقد رسم ابن حزم هذه الشخصية الملول ، الهلوك على الملذات الصغيرة العابرة ·· ولا دهشة في ان يظهر قبل دون جوان اسبانيا دون جوان آخر من عند العرب ، وان تظهر بعده هذه الصور العديدة لدون جوان حتى في عصرنا الحديث·· والمهم ان المؤلف قد استهجن هذا النوع مـن الحب الذي هو ليس بالحب ولكنه وجد مرهق مخلوط بالخوف مـن الموت ، والخوف من كمد الوحدة ، مغموس في انانية ، وافراط فـي النرجسية الرعناء !

فبين الحب العذري والحب الدون جواني ذلـك الحب الناضج الذي يختلط بالعفة ، والوحدانية في الحب ، فالحب العذري تطرف والدون جواني تطرف ايضا ·

وقد بدأت الدون جوانية في الادب على هـذه الصورة التي تنتهي دائما الى العقاب والاستهجان ·

واشار المقفع في كتابه « الادب الكبير » الى هذا الميل الدون جواني ، واستهجن ان يدفع الطمع الى هذا اللون المفرط في القلق العاطفي والتنقل بين النساء ..

وسارت اسطورة دون جوان عبر القرون ، تظهـــر في الادب الرومانسي ، حتى عصرنا الحديث . فكتب عنها موليير وبيرون والفريد دي موسيه وتيوفل جوتييه وادموند روستان وهنري باتاي وغيرهم كثيرن عديدون .

وقد تخلص ادباء عصرنا من هذا العقاب الديني الرهيب الذي ينزل بدون جوان ، فرسموا صورة دون جوان وتوغلوا في داخل نفسه ، وحسبوا عليه هواجسه فاذا به مظنون في عقله او طبيعته المفرطة ، ولعل اروع صورة لعقاب دون جوان، هي التي رسمها انجمار بيرجمان ، المخـرج المعاصر ، حين صور دون جوان وخادمه ، وقد نزلا من الجحيم الى الارض .

فالقصة عنده تبدأ من نهاية قصة دون جوان الحقيقية..

اذ يقرر الشيطان ان يعفو عن دون جوان ، وعن خادمه لمـا له من طول الباع والخبرة في فنون الحب ومكـائده ، اذ استطاع ان يغوي فتاة ريفية عذراء ابية كل الابـــاء ، حاول الشيطان ان يغويها بكل الوسائل ، فلم تنفع غوايته .

واذا بالشيطان يقرر ـ آخر الامر ـ ان يلجأ الى دون جوان ، وهو ضيف الجحيم ، فيقرر ان يرسله الى الارض في بعثة اغواء واغراء .. ويعده الشيطان ان يرفع عنـــه عقاب خمسمائة عام من المقام في الجحيم ، لو تغلب علـــى هذه العذراء المتكبرة .

فيرضى دون جوان ، وينـــزل الـــى الارض ، وتمطر

فيستنجد ببيت الفتاة · ويدعـــوه ابوها الشيـــخ الطيب ، ويستضيفه ويكرمه ·

واذا بالفتاة حالمة ارق ما يكون الحلم ، شفافة ، كالملاك، رقيقة كظل الورد ، وضاءة الوجه ، لا تكاد تختفي من وجهها ابتسامة حتى تضيء ابتسامة اخرى ·

والقصة الجديدة تروي كيف ظل دون جوان ساهرا مع الفتاة ، بعد ان نام اهلها ، واغوى خادمه امها ، فاذا بالفتاة تحكي له الاقاصيص ، مثلما حكت شهرزاد لشهريار الحكايات الرقيقة التي انامت فيه الذئب المولع بالدم والقتل والفتك · فاذا بهذه الفتاة الرقيقة تأخذه بسحرها ، فيحس دون جوان ـ لاول مرة في حياته ـ بوجيب الحب الحقيقي ، حب عفيـــف ليس وراءه طمع · وينسى دون جوان بعثته ، وتنقضي الرحلة ، ولا يطيق او يجرؤ على خداعها ·

فاذا بالمخادع الماهر ينقلب الى محب عاشق كتوم ·

ويضطر دون جوان الى النزول من الارض الـــى اعماق الجحيم ، راضيا بالخذلان والخيبة ·

وكأنه يتعرض لعقاب اشد من عقـــاب الجحيم مئـات السنين ·

ويريد المؤلف ان يقول : ان الحب المخلص يصبح ـ مع بعد الحبيب ـ عقابا اشد عذابا من القرار في جوف الجحيم !

عـــليّ ، وعـــلى
البورجوازيين يا رب ..
« باكونين »

الفوضوي والقيصر

في باريس شارع طويل ملتو منحدر قذر فقير اسمه : شارع مفتار ·· لا يزال على حاله حتى الآن ··

ولكنه كان منذ اكثر من ستين عاما مركزا لجريدة « الثورة » الفوضوية ·

ويصف احد الكتاب مقر هذه الجريدة ، فيقول : انه صعد الى بيت قديم به اربعة ادوار · وعندما وصل الى الدور الرابع وجد دورا آخر يؤدي اليه سلم خشبي ضيق ·· وهناك وجد باب الجريدة مغلقا وقد كتب عليه : « ادفع الباب ·· لا يوجد جرس ! » ·

ودخل ·· فوجد اكواما عالية من الجرائد والمجلات والاوراق ، وكرسيين ·· ومائدة تتكون من لوح واحد خشبي فوق قائمتين من الحديد ·· ووراءها كان يجلس الفوضوي كروبتكين ·

ولم يلمح الزائر في محدثه الفوضوي شيئا غريبا ·

كان صوته هادئا وبدت ملامحه متصوفة وعيناه باسمتين ·

وقال له كروبتكين اثناء الحديث :

ـ « ان العمل مذهبنا ·· والعلم الحديث الوحيد الذي يجب ان يتعلمه الفوضوي : هو الكيمياء » ·

فساله الكاتب :

ـ ولماذا الكيمياء بالذات ؟

وقال له كروبتكين :

ـ حتى يستطيع ان يصنع القنابل بنفسه !

... ليس بيننا وبين البورجوازيين صلة .. ويجب ان يكون علمنا هو الثورة الدائمة .

ولقد دوت هذه الثورة « الدائمة » في عواصم اوربا المختلفة في اواخر القرن التاسع عشر !

دوت في فرنسا ، حين قتل رئيس الجمهورية ، سادي كارنو ـ وهو يفتتح احد المعارض الصناعية في مدينة ليون . اذ صعد الى عربته التي تسير في احد شوارع المدينة ، احد الفوضويين الايطاليين واسمه كازيريو ، وانهال عليه طعنا بخنجر مسموم واخذ يهتف :

ـ تحيا الثورة !

ومات رئيس الجمهورية ..

وانتفضت اوربا على موجة من الارهاب المفاجىء للشخصيات السياسية البارزة ، وكان الفوضويون ينادون :

ـ اضربوا الرأس فجأة حتى لا يضطرب الجسد ..

فهذه الوحشية المفاجئة هي التي تقتحم على الشعب سباته العميق المخدر .. وتوقظه بسلسلة من المؤامرات المجنونة .. لكي تحمله على الايمان وتقوده الى النصر .

وتكونت في اسبانيا عصابة « اليد السوداء » الفوضوية التي اغتالت رئيس الوزارة الاسبانية .

وبعد ذلك بعام واحد قتل الفوضوي الو شيزي الامبراطورة اليزابيث امبراطورة النمسا ..

وفي ايطاليا اغتال الفوضوي بريس الملك امبرتـــو ملك ايطاليا ٠

وبعد ذلك بعام ، عبرت الفوضوية المحيط الى امريكا ٠٠ فقتل احد الفوضويين رئيس الجمهورية الامريكية ٠

وتمنت الفوضوية ان يكون رؤساء الدول رأسا واحدا ، فتقطعه ٠٠ وتستريح ! ٠٠

وعرفت حركتهم باسم « الدعاية للمبدأ بالجريمة » ٠

ولم يقتصر احتجاجهم على الاغتيال ٠٠ بل اعتمد على الهدم والقاء القنابل على المباني الضخمة والآثار الهامة ٠٠ والاماكن العامة ٠٠

ويقول الفوضويون في بيان اذاعوه :

« ٠٠٠ لن نحترم اي اثر يمت الى الماضي ، فأي تمثال يشير الى الماضي سنهدمه بلا الم او ندم ٠

ان مهمتنا هي احالة هذه المباني الضخمة الى خرائب ٠

ان كنيسة نوتردام ٠٠ قطعة فنية رائعة البناء حقا ٠٠ ولكن لا تأخذكم بها رحمة ٠٠ فاجعلوها اثرا بعد عين ٠

لا تترفقوا بعلماء الآثار الذين قد يجيئون من بعدكم ٠٠ وقد يتحسرون لان كنيسة نوتردام اختفت تمامـــا مـــن على الارض » ٠٠

وتشعب نشاط الفوضويين فشمل السرقة ايضا ٠٠

وهناك فوضوي ايطالي اسمه « بينـــي » تخصص في

السرقة واشتهر بأنه يسرق ليعطي الفقراء ·· وليمول الحركات الفوضوية ·· وانه يعيش شخصيا على الكفاف ·

وتخصص بيني في السطو على الكنائس والاديرة المتخمة بالتحف والمجوهرات والايقونات والصلب الذهبية ·· وكان يتتبع النذور والهدايا بحذق ·· ويسرقها بدهاء ··

ولما توسع في مشروعاته قال عن نفسه « انه قرر ان ينزع ملكية البابا » ·

وكانت محاكمات الفوضويين تتيح لهم فرصة لاذاعة مبادئهم ، والدعوة لها ·· وكانوا لا يعبأون بقضاتهم ومحلفيهم ·· ويسمون قضاتهم « تجار الظلم » ·

وكانوا غالبا يتهمون متهميهم ، ويحاكمون قضاتهم ·· اثناء المحاكمة ·

ولعل ثبات جنان الفوضويين كان له اثر كبير في الدعاية لقضيتهم ·· فقد كان اغلبهم يتسم بمسحة من التصوف والتهور ·· والاستعلاء ·

ومنهم من استقبل الموت وهو يغني بعض الاغاني المنغمة تنغيما طروبا ، ولكن كلماتها تقطر سما ودما :

« اذا اردت ان تكون سعيدا

فباسم الاله

اشنق صاحب الملك الذي تسكن عنده »

ومنهم من خرج من زنزانته ، وسار الى غرفة التنفيذ ، وهو لا يرفع رأسه عن كتاب « دون كيشوت » للكاتب الاسباني

سرفانتس : كان قد بدأ في قراءته قبل ان يدعى الـــى تنفيذ الحكم ، فظل يتابع قراءة البقية ·· حتى قطعت رقبته !

وتيقظت الحكومات الاوربية الى هذه الموجة الداهمة من الاغتيال والارهاب والسرقة والهدم ·· فساقت العشرات منهم الى المحاكمة ·· ثم الى المقصلة ·· وصـــادرت جرائدهم ، ومنعت اجتماعاتهم ·· وضيقت عليهم الخناق ·

ولكن الفوضويين لم يعدموا طـريقة للدعاية ، ووسيلة للانتقام ··

ذهب احدهم الى ميدان الجمهورية بباريس، وصعد الى اعلى فانوس من فوانيس الميدان وربط ذراعه بالعمود بسلسلة من الحديد ، واقفلها بقفل ، واودع المفتاح في جيبه ··

ثم اخذ ، وهو في وضعه الغريب ، يدعو الى الفوضوية ·· وتجمع الناس ·· وحضر البوليس · ولكنه ظـــل يدعو لمذهبه · والبوليس يدعوه الى النزول ، فيرفض ·· واحضر البوليس في النهاية سلما ، وصعد اليه ·· ولكنـــه لـــم يجـد المفتاح ·· وظل الفوضوي يتكلم ·· ورجل البوليس يبحث عن المفتاح ·· حتى اتم الفوضوي خطبته ·· ونزل ·· مقبوضا عليـــه ··

وانتشرت موجة الفوضوية فكان منهم صبية لم يبلغوا بعد سن الرشد ، ونســـاء صغيرات ، وراهبات ، وعمـــال ، وامراء سابقون ·

وفي خطاب لسانتي الذي لم يبلغ العشرين مـــن عمره يقول لأمه :

ـ لقد قتلت بنفس القلب ـ ثابت الجنان الذي احببتك به يا اماه !

وسيقال عني اني شيطان رجيم او مجرم اثيم او مواطن فاشل ·· ولكنني قتلت لانني لم اجد في هذا العالم اي امل ··

وانتشرت فرق فوضوية ·· من روسيا الى اسبانيا ·· ومدت نشاطها حتى اعماق القرى البعيدة ·

ففي فرنسا وحدها انتشرت عشرات الجمعيات الفوضوية التي اختارت اسماء غريبة ·

ففي باريس تجد « الجماعة الدولية » و « العلم الاسود » و « ابناء الطبيعة » و « طليعة العمال » ··

وفي مدن فرنسا الاخرى نجد : جماعات « مهما يكن » و « الاشغال الشاقة » و « المنتقمون » و « الارض والاستقلال » و « عديمو الاهل » و « المفلسون » و « الفلاح الجائع » و « المتقززون » و « قلوب من حديد » و « الديناميت » ·

وقصة الفوضوي الفرنسي دوفال تعطينا مفتاح التفكير الفوضوي ·

كان دوفال قد سرق منزل احدى الممثلات المعروفات، ثم اشعل الحريق في اثاثه ·

ودهمه البوليس ، وكان رجاله يقولون ـ حينذاك ـ جملة تعودوا عليها وهي :

ـ انني اقبض عليك باسم القانون !

وعندما حاول احد الضباط القاء القبض علـــى دوفال قال له هذه الجملة التقليدية ، فاستل الفوضوي خنجرا واخذ يطعن به الضابط وهو يصرخ فيه :

ـ انت تقبض علي باسم القانون ، وانا اقضي عليك باسم الحرية !

مشكلة القانون ٠٠ والحرية : هما مفتاح الفوضوية ٠٠

فالقانون الزام وقيد على حرية الفرد ٠

والحرية عند الفوضويين حرية بلا حدود ولا قيود ٠٠ والقانون يمثل الدولة عدوة الحرية ٠

وعداء الفوضويين للدولة عداء صريح ، يرجـــع الى ايام « جودوين » اول مفكر فوضوي ظهـــر في انجلتـرا ٠٠ وتفكيره لون من الفوضوية العقلية ٠٠

ذلك ان الفوضوية اتخذت سبيل القتل والهدم في فترة هامة من حياتها ـ ويطلق الفوضويون علـــى هذه الفتـرة « العصر الذهبي للفوضوية » ٠ ولكـــن الفوضوية اتخـذت اشكالا مختلفة وتلونت بالوان المفكرين ، واختلفت باختلاف العصور التي ظهرت فيها ، والشخصيات التي مثلتها ٠

فجودوين المفكر الانجليزي ظهر في انجلترا اثناء حدوث الثورة الفرنسية ٠ وقد تاثر بالثورة الفرنسية ومبادىء حقوق الانسان ٠ وقد كان لهذه الثورة دوي هائل داخل بريطانيا ٠٠ بل ان بعض الثوار الفرنسيين كـانوا ينـادون بارسال قوات لتحرير بريطانيا مـــن ربقة الارستقراطية والاقطاع ٠ وقـد اثارت الثورة الذعر في صفوف الارستقراطيين والهلع للدماء التي اريقت ، وقام احد الكتاب واسمه « بيرك » يندد بالفظائع

الدامية · وفي كتابه : « نظرات على الثورة الفرنسية » يبكي ويرثي شهيدة الارستقراطية ·· ماري انطوانيت !

ولكن بعض المفكرين تحمسوا للثورة ومبادئها · ومنهم توماس بين الذي كتب « حقوق الانسان » ليرد على بيرك · ومنهم ايضا جودوين الذي كتب كتاب « بحث في العدالة السياسية واثرها في الفضيلة والسعادة الاجتماعية » ·

وفي هذا الكتاب يبشر جودوين بعالم جديد ، يتخلص من الملكية ومن الدولة ، ويبنى على الارادة الحرة والرضا التام بين المواطنين ··

ويشتبك فيه جودوين بنبي التشاؤم الاقتصادي مالتس الذي ظهر في نفس الوقت بنظريته التي تقول ان العالم مهدد بزيادة السكان ازديادا خطيرا ، ما لم تنقذه حرب او مجاعة او وباء ·

وقد اصبح كتاب جودوين عن العدالة والفضيلة والسعادة انجيل الشعراء الرومانتيكيين ·· وتغنى به كولديدج وويردويرث ·· بل وفكر بعض الشعراء ان يهاجروا الى امريكا لكي يحققوا احلام جودوين على الطبيعة ··

ولكن كيف كان جودوين فوضويا !؟

ان جودوين ينادي بالثورة على الاقطاع والارستقراطية والدولة التي تمثلهما ، وينادي بالعصيان ايضا على الزواج والعائلة ·

وكان يقول : « ان الزواج قانون من اسوأ القوانين ·· وملكية من اقبح الملكيات ! » ·

وجودوين يرى ان الدولة سواء اكانت مستبدة أم ديمقراطية فانها تتنافى مع العقل · وهو يدعو الى تخليص العقل من كل القيود والشوائب والعوائق · ويرى « ان كل حكومة شر » ، وان الاعتراف بالحكومات تخل عن العقل ·

ويرى الملكية في بلاده موزعة توزيعا جنونيا : فالمحرومون لا يتمتعون بالعقل ، لانهم لا يرفعون رؤوسهم عن التقاط فتات الرزق كل يوم ·· والاغنياء افسدت اللذائذ رؤوسهم ، لان تكديس الاموال يطفىء شرارة العبقرية ، ويغرق اكثر الناس في الهواجس التافهة ·

وهو لهذا يدعو الى ان يعاد تنظيم المجتمع ، فيقسم الى مجتمعات اصغر ما يمكن ، يعيش فيها كل الافراد الذين يجمعهم التعاون الحر العاقل الراضي ·· ولا يربطهم غير الرضا والارادة الحرة ··

وجودوين هنا يحلم حلما فوضويا ·· فلقد كان ثوريا اكثر من الثورة الفرنسية · وساعده على انطلاق احلامه انه كان بعيدا عن معاناة الثورة ·· لم يصطدم بالمتاريس ولم ير الدماء ولم يوجه نداء او ينفذ امرا ·· وهذا البعد عن الحقيقة الواقعة اثر في انطلاقه مع احلامه ، يقتطع منها ، ويبني عليها ما يريد ··

وهو يعبر عن ذلك الحلم بكلماته الحماسية عن الثورة الفرنسية « ··· اول ما فكرت هو ان اكتشف منجما لم يكتشف من قبل ، وان استخرج منه صخرة صلبة فريدة تسحق بوزنها وصلابتها ورسوخها كل مقاومة · وعليها ابني مبادىء الثورة بناء ثابتا خالدا الى الابد ·· » ·

والحقيقة ان بذور الفوضوية ولدت مع ميلاد الراديكالية

والفردية التي دعا اليها جان جاك روسو في كتابه العقد الاجتماعي· وقد تأثر جودوين بهذا الكتاب ـ كغيره من الكتاب الانجليز ··

فروسو يقول ان ما يربط الناس في المجتمع هو التعاقد الحر · ونتيجة ذلك ان الذي يعقد عقدا حرا ، يستطيع ان يفسخه برضاه ايضا ··

والا ·· فلماذا يسمح للمتعاقد الفرد ان يفسخ عقده مع الفرد الآخر ، ولا يسمح للفرد ان يفسخ عقده مع المجتمع ؟

وطبيعي ان فكرة روسو مجرد فكرة افتراضية · ولكنها في ذلك الحين كانت محركة للثورة الفرنسية التي ثارت على الحقوق والارتباطات القديمة ·· والقيود التقليدية ·· ونادت بايجاد علاقات جديدة من نوع جديد ·

ومع ذلك فالفوضوية لم تقو جذورها الا بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما ··

ففي حوالي عام ١٨٤٠ ·· انطلقت الافكار الفوضوية كالوحش الكاسر ·· او كالفيضان الخطير ·

ففي برلين حوالي عام ١٨٤٠ عششت الفوضوية بين تلاميذ هيجل الذين اطلقوا على انفسهم « اليسار الهيجلي » ·· وانطلقت من صفوفهم افكار جديدة بجذور جديدة وآمال جديدة ·

بدأت هذه الافكار من خيبة الامل في الثورة الفرنسية ، فبينما كان هيجل يرى ان امل الانسان قد تحقق في اثناء الثورة ·· كان تلاميذه يقولون :

« لقد تغير الطغاة ولكن الطغيان لم يتغير ! ·· »

وقد تأثر هؤلاء التلاميذ بمنهج هيجل في التفكير ، ولكنهم طرحوا تفكيره عن الدولة ، ذلك لان هيجل كان يعتبر الامل الكبير هو تحقيق الدولة البروسية ·· وعلى رأسها القيصر ··

وعند باكونين تفجرت افكار هيجل ، واخذت اتجاها جديدا · وقد عاش باكونين واشترك في « نادي الاحرار » ببرلين الذي كان يتردد عليه كارل ماركس وفريدريك انجيلز وماكس شترنر ·

وباكونين من ابناء السادة في روسيا القيصرية · كان ابوه ملحقا في السفارة الروسية بنابولي وفلورنسه ·· والتحق هو بالمدرسة الحربية ـ شأن ابناء الثراة ـ وتخرج ضابط مدفعية ··

ولكنه استقال بعد تخرجه بثلاثة شهور ، وسافر الى موسكو ·

ويقول احد المؤرخين ان سحق الثورة البولندية عام ١٨٣٠ ، وبولنده كانت تابعة لروسيا حينذاك ، ومرأى الارهاب هز قلب الشاب ، كما اشعل في قلبه روح الكراهية للنظام الاستبدادي ، وجعله يستقيل من الجيش ! ·

وفي موسكو بدأ باكونين يتعرف لاول مرة على افكار هيجل والمثاليين الالمان التي كانت تغزو كل الصالونات الادبية والاوساط الفكرية في روسيا ··

وعندما سافر باكونين الى برلين تعرف على افكار فخته

وكانت وشيلنج ، وتابع دراساته في التاريخ والفلسفة واللاهوت ٠٠ بل وفي التصوف ٠

وبرلين كانت نقطة تحول في تفكير باكونين ٠

لقد كان في البداية يؤمن بالنزعة السلافية العنصرية ، وهي تيار فكري ظهر في روسيا يدعو الى الوطنية السلافية والى تكوين امبراطورية شرقية على رأسها قيصر مستنير ، ويؤمن « بأن في موسكو تتحطم عبودية الشعوب الخاضعة لظلم روسيا ، وعبودية جميع الشعوب السلافية ، وتدفن قيودها في خرائب البورجوازية ٠٠ ومن بحر الدماء والنيران سوف ترتفع فوق موسكو راية الثورة عالية في السماء ، لكي تهدي الانسانية المتحررة » ٠

ولكن باكونين في برلين اخذ يتخلص من هذه النزعة السلافية ، ويتخلص من مسحته الدينية ، واخذت تهب عليه التيارات التي تمثل صميم اوربا ٠٠ فيمتص افكارها الثورية التي تعتمل في احشائها ٠٠ ببطء ٠٠ وبقسوة ٠٠

ويكتب باكونين في جريدة الهيجليين مقالات تحت اسم مستعار « جول ايلزار » وعنوان المقالات « الرجعية في المانيا » وفي هذه المقالات تنفجر احدى عباراته الشهيرة التي تصبح شعارا لحياته « ان عاطفة التخريب والهدم عاطفة خلاقة » ٠

وهو في هذه المقالات يحلل التاريخ الالماني ـ على اساس هيجلي ، ويقول ان الرجعية لا بد منها لكي يكون التحرر٠٠ فهما نقيضان يلدان الحرية ٠٠ وان كان يضع كل اهتمامه على حركة النفي والهدم ٠

وينطلق باكونين عبر اوربا يبحث عن ثورة يشترك فيها٠

فينتقل من المانيا الى فرنسا الى بلجيكا ، يخالط الثوريين ويجهر بآرائه الفوضوية ٠

وتسعفه ثورة ١٨٤٨ في فرنسا ، فيخوض معارك الشوارع ويعتصم بالمتاريس ٠٠

ثم يفر الى بروسيا ثانية ، فيقابل صديقه الموسيقار ريتشارد فاجنر ، ويدعوان معا الى ثورة على غرار ثورة فرنسا ٠٠ وتشتعل حوادث دامية في مدينة درسدن ، وتظل المدينة بلا سلطات خمسة ايام ٠ ولكن العصيان يفشل ، فيتمكن فاجنر من الهرب ، ويقبض عليه ، ويحاكم ، فتحكم السلطات عليه بالاعدام ٠

وتسلمه بروسيا الى النمسا ، فتعاد محاكمته ويحكم عليه بالاعدام ثانية ، وتسلمه النمسا بدورها الى روسيا بلاده ، فيحكم عليه القيصر بالسجن المؤبد ٠٠ ويظل مسجونا في قلعته سان بيير وسان بول ٠٠ حتى تخفف عقوبته ويرسل الى سيبريا ٠

وقد قيل ان القيصر نيقولا شطب اسمه عند عرض قوائم الافراج عن بعض المسجونين السياسيين ، وان خليفته القيصر الكسندر الثاني قال لأم باكونين عندما قابلته تسترحمه :

ـ ان ولدك لن يذوق طعم الحرية ما دام حيا ٠

ولكن باكونين رغم ذلك يستطيع الهرب من سيبريا الى اليابان ، ويذهب الى امريكا ، ثم يعبر المحيط ويعود الى اوربا ثانية ٠

ويقابل مواطنيه المنفيين ايضا الذين قابلهم في موسكو منذ اكثر من عشرين عاما : مثل هيرزين واجاريوف ٠

ويشترك باكونين في جملة هيرزين « كولوكول » ، ولكن لهجتها المعتدلة لا تعجبه والكتابة لا تطفىء ظمأه للحركة · فيهجر الكتابة ويبحث عن ثورة ·

وتسعفه ثورة بولنده ـ مرة ثانية ـ فيسرع للاشتراك فيها ·· ولكن الثورة تفشل ·

فيفكر في العودة الى بلاده : روسيا ·

او على الاصح في غزو بلاده ·

وينجح في اقناع بعض الثوار المسلحين ، ويتفق معهم على الهجوم على روسيا من السويد ! ويستأجر لهم سفينة ، ولكن صاحب السفينة يخشى العاقبة ، فيشي بالسر الى السلطات ، ويقبض على باكونين من جديد ·

ويتمكن باكونين من الهرب مرة ثانية الى لندن · وهناك يلتقي بكارل ماركس بعد ستة عشر عاما من لقائهما الاول ·

وتدور بين الرجلين اكبر معركة بين الفوضوية والاشتراكية ·

وتتدخل في المعركة الكراهية الشخصية والتحدي والنزق والاشاعات مما يصور ـ بحق ـ نزاعا عاصفا بين المذهبين ·

ويصف باكونين بنفسه هذا النزاع ، فيقول :

ـ بينما كنت سجينا في قلاع بروسيا ، وسجون روسيا، وجليد سيبريا ·· كان ماركس وشركاه يصيحون من اعلى اسطح المنازل بأبشع الاشاعات حولي ·

قالوا :

ـ انني لم اسجن وان القيصر نيقـــولا قابلنـــي باذرع مفتوحة ، وضمني الى صدره ، وامـــر ان توفـــر لي وسائل الراحة والمتعة ، وقالوا انني امضيت عقوبتـــي الطويلة بين احضان النساء الخليعات غريقا في بحر من الشمبانيا ٠

وترجع هذه الاتهامات الى ان احد الكتاب نشـــر في جريدة « الراين الجديدة » التي يشرف عليهـــا مـــاركس ان الكاتبة الفرنسية جورج صاند تملك اوراقا تثبت ان باكونين اسلم روحه الثائرة للقيصر ، وانه اعترف له بسخافة دعواه، واعتذر عنها ، فخفف القيصر عنه العقوبة ونقله الى سيبريا !

وقد ظلت هذه الاشاعة تحوم حول الرجل ، حتى بعد ان بادرت جورج صاند وكذبت هذا النبأ ٠٠ وقالت انها لا تعرف شيئا عن علاقة القيصر بباكونين ٠

ويقول باكونين ان ماركس « ارسل الي ورقـــة صغيرة يسالني اذا كنت استطيع مقابلته ٠ وقد رددت عليه ٠ فجاءني٠ واقسم لي انه لم يقل اي شيء او صنع اي شيء ضدي ، وانه يكن لي احتراما بعيدا ٠ وكنت اعلم انه يكذب ٠ ولكنني لـــم اكن احمل له اي حقد ٠ واثارني ان العلاقة بينه وبيني قـــد تجددت ٠٠ وانها اخذت تتجه اتجاها جديدا ٠

٠٠ فلقـــد علمت انه قام بدور كبير في انشاء « الدولية الاشتراكية » ٠٠ وقرات البيان الذي كتبه بنفسه باسم اللجنة المركزية المؤقتة ، ووجدت البيان قويا رصينا ٠٠ عميقـــا كاي شيء يكتبه ماركس ولا يتصل بشخصه ٠ وباختصار ، عاد الينا الصفاء ، وان كنت لم ارد عليه زيارته » ٠

ويصف ماركس في خطاب ارسله الى صديقه انجيلز هذا اليوم فيقول :

ـ « لقد سافر باكونين الى ايطاليا اليوم ·· ورأيته امس مساء مرة ثانية لاول مرة بعد ستة عشر عاما ، ويجب ان اقول لك انني احببته كثيرا ·· اكثر مما مضى ·

لقد قال لي انه سيوجه نشاطه ـ بعد فشله في بولنده ـ الى الحركة الاشتراكية ··

وعموما ، فانني ارى فيه شخصية نادرة من الشخصيات التي لم تتأخر منذ ستة عشر عاما ، بل انه تطور وتقدم » ·

وايا كانت هذه الهدنة بيـــن الفوضوي والاشتراكي ، وهذا الحب المؤقت من على السطح · فقد كان العداء بينهما اصيلا وعميقا ، وكان الصدع بينهما لا ينسجم ·

لقد كانا مختلفين اختلاف المذهبين ايضا ·

كان باكونين ثائرا منفعـلا يعادي كل نظـرية فكـرية منتظمة ، ويتجنب العلم ، ويتحاشى التنظيم ، ويهـــزأ بحكم « الاساتذة » كما يقول ، وينادي بالبحث عن ذلك التيار الخفي الذي يسري في قلوب الشعب مثل الكهرباء ·· ليحيلـــه الى صاعقة تهدم كل شيء ·

وهو لهذا يؤمن كل الايمان بقوة الغريزة ، وانطلاقاتها غير المنظمة ·· ويرى ان الانسان يمر بثلاث مراحل اذا تطور: من الحيوان الى المفكر ، ثم يصعد بعد ذلك الى مرحلة الثائر· وهو لذلك يسعى الى اطلاق شرارة العصيان في كل النفوس ، ويعتمد على « الغوغاء » غير المنظمة ، لتعصي الاوامر وتكسر القيود ، وتنكر التاريخ ، وتمحق المدنية ! ·

ومن كلماته المعبرة عن هذه الـــروح هـــذه العبارة المتوترة : « علي وعلى البورجوازيين يا رب ! » ·

اما ماركس فانه يهتم بالنظرية ، ويدعو الى العلم والفلسفة · ولا يؤمن بالسياسة التي تضع مصيرها في يد الانفعالات ويركز همه على الوعي ، ويعطى له الدور القيادي ·· قبل كل شيء ·

ولقد دار باكونين حول ماركس ، وناقضه ، وعاداه وكان لا يعدم الاعجاب بشخصيته ، حتى انه يقول « لقد كان ماركس تقدميا اكثر مما كنت بكثير ، كما يظل اليوم اكثر علما

مني بدرجة لا تدع مجالا للشك وان لم يكن اكثر تقدمية مني الآن · فلم اكن اعرف حينذاك « ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ » شيئا عن الاقتصاد السياسي ! ولم اكن قد تخلصت من المفاهيم الميتافيزيقية المجردة ، وكانت اشتراكيتي غريزية فقط » ·

وكان باكونين يتراوح بين الاعجاب بماركس ، والعجز دونه ، والحنق عليه ·· وكانت عداوتهما مستمرة ـ على الرغم من انهما لم يلتقيا الا قليلا ·· وعلى الرغم من ان ماركس كان غالبا في مكان ·· وباكونين في مكان آخر ·

ولعل هذا العداء جعل باكونين يرقب ماركس ، وكأنه يثقب عقله ويعرف ما فيه ، ولباكونين كلمات قليلة تلخص الخلاف بين الرجلين · يقول :

« ان ماركس شيوعي يؤمن بالسلطة المركزية · انه يريد ما نريده : انتصار المساواة الاقتصادية والاجتماعية ·

ولكنه يريدها في الدولة ·· ومن خلال سلطة الدولة : اي من خلال ديكتاتورية حكومة مؤقتة ، يمكن ان تتصف بالاستبداد ، وبمعنى آخر بالغاء الحرية ·

ان مثله الاعلى الاقتصادي هو الدولة كالمالكة الوحيدة

للارض وكل انواع رأس المال ·· فهي التـــي تـزرع الارض بواسطة جمعيات زراعية يشرف عليها مهندسون من الدولة ، وهي التي تشرف علـــى الجماعات الصنـــاعية والتجارية برأسمال الدولة ··

ونحن نريد ايضا المساواة الاقتصادية والاجتماعية ·

ولكننا نريدها من خلال الغاء الدولة · والغاء كل مـا يسمى بالقانون ـ الذي اعتقد انه نفي للحقوق الانسانية ·

ونحن نريد اعادة بناء المجتمع وتوحيد الانسانية ليس من فوق الى تحت · بل بالاتفاق لكل جماعات العمال المتحررة من استعباد الدولة » ·

اذن لقد وصلت الفوضوية عند باكونين الـــى مرحلة حرجة وخطيرة ·· انها اكتشفت شيئا جديدا يتكون في احشاء المجتمع الاوربي اسمه : العمال ·

وهذا هو السر الحقيقي لتلك المرارة وذلك الحقد والنفور الذي دمغ العلاقة بين ماركس كاشتراكي وباكونين كفوضوي·

وقد دارت المعركة رهيبة بين الرجلين عنـدما تأسست الدولية الاولى التي تجمع الحركات الاشتراكية في اوروبا ·

وكان السباق مجنونا بين القطبين · واحنق ماركس لان باكونين بدأ ينشط في ايطاليا ، واسس في عام ١٨٦٤ جماعة الاخـــوة العالمية ، او « حلف الثوريين الاشتراكيين » ·

وقد انشغل الحلف وقتا بمحاربة قومية ماتزيني ·· ثم رحل باكونين بعد ذلك الى سويسرة ، حيث ساهم في تأسيس « الحلف العالمي للديمقراطية الاشتراكية » ، ووضع باكونين برنامج الحلف الذي تتلخص مبادؤه :

« يعلن الحلف انه ملحد ، ويهدف الى الغاء الطبقات والمساواة السياسية ، والتسوية الاجتماعية بين الرجال والنساء ، ويرغب في ان تكون الارض ووسائل العمل وانواع رأس المال الاخرى ملكا مشتركا للمجتمع كوحدة · ولا يستخدم الا بواسطة العمال ، اي بواسطة الاتحادات الزراعية والصناعية ·· »

وقد حاول باكونين ان ينضم بالحلف الى الدولية الاولى التي اسسها ماركس ، وكان يرمي الى الاندساس اليها ، ثم التهامها واقصاء ماركس عنها ·

ولكن ماركس عرقل له هذا المسعى تارة باعتراضات شكلية ·· وتارة بالاشاعات حول جاسوسية باكونين ··· أو اعترافاته للقيصر ·

وفي المؤتمر الرابع الذي عقدته الدولية تمكن باكونين من الدخول بأحد أفرع حلفه ·

وثارت في المؤتمر عاصفة بين انصار باكونين وأنصار ماركس ·

والغريب ان المندوبين الالمان والانجليز وافقوا ماركس على ايمانه بالدولة بالشكل الذي تتخذه بعد الغاء الملكية الخاصة ، وعلى رأيه في وجوب تأسيس احزاب عمالية في الدول المختلفة ، وفي استخدام الوسائل الديمقراطية لانتخاب مندوبين للعمال في البرلمانات ·

بينما يتبع اللاتينيون رأي باكونين ، في معارضته للدولة وعدم ايمانه بالوسائل الديمقراطية ·

وأثير من جديد اتهام باكونين بالجاسوسية والتعامل مع القيصر !

ولم يقض على باكونين الا في المؤتمر الدولي العام الذي انعقد في لاهاي ١٨٧٢ ، اذ طرد باكونين غيابيا واتهم بالسرقة بالاكراه !

وبهذا شقت الاشتراكية طريقها الخاص ، بعد أن تخلصت في معركتها الكبرى من باكونين وآرائه ٠٠ وان كان ماركس قد دخل في معارك أخرى مع غيره من الفوضويين ٠

وعندما ألف الفوضوي الفرنسي برودون كتاب « فلسفة البؤس » رد عليه ماركس بكتاب سماه « بؤس الفلسفة » ٠

والخلاف بين برودون وماركس يتلخص في أن برودون يعارض الملكية أيا كان نوعها ، سواء أكانت الملكية خاصة أم جماعية ٠ فهو يرى أن « في ظل الحكم الفردي (الليبرالي) يستعبد الاقوياء ٠٠ الضعفاء ، وفي ظل الحكم الجماعي يستعبد الضعفاء الاقوياء » ٠

ومن أشهر عبارات برودون : الملكية هي السرقة ٠

وهو يعارض الملكية ، ولا يعارض حق التمتع ٠

« فالتمتع يلهب نشاط الانسان ، ويذكي قواه ويدفعه الى العمل ٠ واذا زالت هذه الرغبة فمصير العمل الى الموت والجمود » ٠

وبرودون يعارض السلطة أيا كان نوعها ، واصحابها لا يختلفون في رأيه سواء أكانوا رجعيين أم تقدميين لان « حكم الانسان للانسان عبودية » ٠

وقد خاض ماركس أيضا معركة ثالثة مع الفوضوي الالماني ماكس شترنر ٠

وقد كان فردريك انجيلز يتقابل مع ماكس شترنر في نادي الاحرار ببرلين ٠٠ والنادي يجمع اليساريين اتباع هيجل ومنهم : الاخوة بوير وكوبن مؤلف كتاب « فردريك الثاني وخصومه » وكارل ماركس ٠٠

ولانجيلز أبيات طريفة يصف فيها شترنر الذي كان يجلس هادئا يدخن بيبته ، ولا يتدخل في المناقشات الصاخبة الا قليلا ٠٠

« انظر اليه ٠٠ انه على وداعته عدو المظالم ٠٠

انه يعب البيرة عبا ، وبعد قليل سوف يعب الدماء كما لو كانت ماء قراحا ٠٠

ولا يكاد الناس يصرخون : يسقط الملوك ٠٠ حتى يقف شترنر ويقول في هدوء ٠٠ « يسقط الملوك والقوانين ايضا ! »٠

وشترنر هذا اسم اطلقته عليه جماعة من اصدقائه ٠٠٠ لان اسمه الحقيقي هو جوهان شميدت ٠٠ ولكن زملاءه أطلقوا عليه هذا الاسم لان جبهته كانت عالية ٠٠ وشترن بالالمانية معناها الجبهة ، وشترنر هو « أبو قورة » ٠٠

وقد ولد ماكس شترنر في مدينة بيرت ببافاريا ٠٠ وابوه صانع آلات موسيقية ٠ ولكنه مات وماكس في سن الطفولة ، فتزوجت أمه رجلا آخر ٠٠

ودرس شترنر في برلين ، وتتلمذ على هيجل ، ولكنه لم

يحصل على شهادة تؤهله للتدريس في الجامعة ٠٠ فاشتغل بعد تخرجه مدرسا في مدرسة بنات أهلية ٠٠

وشترنر ـ الذي يعتبر من أعصى الفوضويين وأقواهم حجة وتشبعا وفهما لفلسفة هيجل ـ عاش حياة هادئة دينية٠٠

كان يذهب في الصباح الى المدرسة يعلم البنات ، وفي المساء الى النادي ٠٠

وقد تزوج شترنر من فتاة متحررة كانت تقلد جورج صاند ، ولم يحتفل بزواجه في الكنيسة ٠٠

وفي نهاية عام ١٨٤٤ ، أصدر شترنر كتابه المشهور : « المفرد وملكيته » ، فأثار ضجة كبيرة في المانيا ٠٠

واستقال شترنر من المدرسة٠ واتجه الى صناعة وتجارة الجبن ، ولكنه كان يقول : « اذا كانت صناعة الجبن هينة، فان بيعه ليس سهلا ٠٠ »

وأفلس شترنر سريعا ، فقبض عليه لانه لم يدفع ديونه، وحكم عليه بالسجن ٠٠

وشترنر من أصفى الفوضويين تفكيرا وأعمقهم تحليلا ، ولكنه جنح بالفلسفة الهيجيلية ، وجمح بها حتى أطلق عليه الفوضوي الهادىء السريرة المتعطش للنار والدماء ٠٠

يقول شترنر ليس في الوجود موجود غير الفرد ، وهو يطالب لهذا الفرد بحق التفرد ، ويستغني عن حق الحرية المطلقة ٠٠ ان يكون هو كما يريد هو لا كما يريد القانون أو المجتمع أو التاريخ ٠٠

وهو يطالب باخضاع الدولة « لقدرتي أنا » ، وصراع المجتمع « لحاجاتي أنا » ، والنزعة الانسانية كلها « لمتعتي أنا »

وهو يرى أن في الدولة تحديدا « للأنا المفردة » ، ويقول: « انني لا أطالب بأي حق ، ولكني أريد ألا أكون مطالبا بالاعتراف بأي حق ٠٠ فما أستطيعه أستطيعه ، وما يخرج عن قدرتي أتركه ! » ٠

وليس من حق المجتمع ان يفرض علينا واجبات اجتماعية، بل من حقنا نحن أن نتطلب من المجتمع ارضاء حاجاتنا ٠٠

ولكن ماذا نصنع بالمجتمع ؟ لتلغ الدولة وليتحول المجتمع الى « تشارك ٠٠ » ٠

ولم تصل الفردية عند مفكر في التاريخ مثلما وصلت عند شترنر الذي يدافع عن « الانا وملكيتها » دفاعا حارا ٠

ويمكن ان يقال انه أول من ادخل « عبادة الفرد » أو على الاصح عبادة الذات كفلسفة ٠

وقد مات هذا الفيلسوف ميتة غريبة ، اذ لدغته ذبابة في قفاه ٠٠ ومات متأثرا بجراحه !

وشترنر من أعدى أعداء الفكرة الجماعية ، وهو يطالب بأن تخضع الحكومات والسلطة والملكية وكل شيء في المجتمع للانسان المطلق الفرد ٠٠ « الذي هو أنا » ٠

ولهذا كان ماكس شترنر يسخر من ماركس ويصفه بسانت ماركس ٠٠ اي القديس ماركس ، وكان ماركس يرد عليه التهمة فيسميه في كتاباته سانت ماكس !٠

ولكن شترنر كان يعيش منزويا منفردا ، يقيم مملكة في

قوقعة ·· ولهذا لم تكن المعركة بين الرجلين صاخبة كما كانت بين ماركس وباكونين ، او بين ماركس وبرودون ! ·

وعلى الرغم من ان نشاط ماركس ضيق الخناق على الفوضوية ، فلم تستطع الاستيلاء على الحركة العمالية في أوربا · الا أن الفوضوية ظلت تلوح بالمجتمع السعيد الحر المطلق من كل شيء ·

وساعد على ذلك أن بعض الفوضويين بدأوا يتخصصون في دراسة الاقتصاد ، ويرسمون صورة للمجتمع القديم · ويضعون النقاط فوق الحروف ··

وتحولت الفوضوية من هذه النزعة الغاضبة من أيشيء المعارضة لكل شيء ، وبدأت تبحث عن الدفاع المعقول عن حقوق الافراد ضد سلطان الدولة ·

وفي قضية « دريفوس » الشهيرة ·· قام الفوضويون بدور كبير ·· في تبرئة هذا الضابط المتهم ظلما ··

ويرجع عيد أول مايو الذي يحتفل به العمال حتى الآن الى مظاهرة قام بها العمال ، من بينهم بعض الفوضويين، في مدينة شيكاغو · واعلن اتحاد النقابات الاضراب في مايو ١٨٨٦ ، ولكن البوليس تصدى للعمال ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وكانت مذبحة ·

وفي الغداة انعقد اجتماع للاحتجاج ، والقيت قنبلة على البوليس ·

فحكم على ثمانية فوضويين بالموت، دون دليل على قيامهم بدور محدد في الاضطرابات ، وبقي ثلاثة في السجن·

ولكن تلك الكارثة كانت نهاية المطاف ، وآخر الرحلة ·· لان الفوضوية لم يبق امامها غير بـاب ضيق ، دخلت فيه في القرن العشرين ··

ودخلت القرن العشرين ومـا زالت عـلى عصيانهـا وكبريائها القديمة ·· فاشتبكت في روسيا بالثورة الاشتراكية في صراع مسلح · وقد وجدت هذه الثـورة خصما عنيدا في شخصية اسمها نيسور ماكنو الذي كون فيلقا من الفوضويين، وظل يحارب حربا هوجاء ضد قوات القيصر وفي نفس الوقت ضد قوات الثورة الاشتراكية ·

وبعد حرب دامية ، فشلت محاولة مـاكنو ، وهاجر الى فرنسا ، ومات وحيدا في بلاد لا يعرف لغتها ، وهو يشرع في كتابة قصة كفاحه ضد الثورة والقيصرية معا ·

وبهزيمة الفوضوية في روسيا تحطمت احـلامها عـلى صخرة الواقع · فتحولت الى اتجاه سلبي عصياني ، وان لـم يخل في آخر حياتها من ان تتخذ شكلا نبيلا حين اعلنت الحرب العالمية الاولى ··

اذ سرت بين الفوضويين دعوة جادة لعدم الاشتراك في الحرب ويصف واحد من هؤلاء الفوضويين حياته فيقول :

« ـ ربع قرن وأنا أكافح ·· أترك وآخذ ، وأومن وأكفر، وأنكر وأثبت ·· أمضيت وقتا قصيرا في المـدرسة ، وخبرت كثيرا من التجارب والمحـن · وأصبحت فيلسوفا من ابنـاء السبيل : أحرق عالما وأخلق عالما جديدا أفضل ··

ومن المحال أن تتلوث يدي بأدوات الموت » ·

وقد سيق هذا الفوضوي للمحاكمة لعصيانه الاوامر الحربية ٠

وأصدر بعض الفوضويين بيانا يتهمون فيه الدولة بانها سبب الحرب ٠٠ الدولة على اختلاف انواعها : الديمقراطية في انجلترا والعسكرية في المانيا والاوتوقراطية في روسيا القيصرية ٠

وهدأت نار الفوضوية ٠٠ في أوربا ٠٠ حتى ظهرت من جديد في أثناء الحرب الاهلية الاسبانية ٠

وكانت الفوضوية منذ سنين طويلة قد اتجهت الى ايطاليا واسبانيا ٠٠ منذ ايام باكونين الذي كان يفضل اللاتين على الجرمان ٠

ولكن الامل كان ضعيفا في فوز الفوضوية في اسبانيا، حتى ان الكاتب لاندبرج كتب أثناء المعركة يقول :

« لن تستطيع الفوضوية ان تنجح في العالم القديم٠ انها تذكرنا بالنبل ـ نبل دون كيشوت الذي انتصرت عليه طواحين الهواء ٠

الفوضوية ستهزم في أسبانيا : اما على يدي الفاشية أو من الماركسيين الذين تقتصر مطالبهم الآن على تكوين جمهورية ديمقراطية وتحقيق اصلاح اجتماعي عميق ٠

ان واقع الحرب الحديثة الميكانيكية يحطم الحزب الفوضوي تماما ٠٠ لانها اقوى من قدرته ٠٠ »

وبهزيمة الفوضوية وتحطيمها ، عادت مرة ثانية الى الاحلام الادبية والاعمال الفنية ٠

واختلطت بالحركة الرمزية في الادب ..

وظهر شعراء وادباء منهم ستيوارت ميدل ، وهو شاعر امريكي يقول : ان المجتمع الحديث يشبه قصيدة رديئة النظم، ولذلك يجب انقاذ الشعر بالمذهب الرمزي وانقاذ المجتمع بالفوضوية .!

ويضع كثير من نقاد الادب الروائي العظيم تولستوي في عداد الفوضويين « الفكريين » .

ويستعيد مكسيم جوركي ذكرياته عن تولستوي فيقول :

كانت الفكرة التي تعكر سلام نفسه ، اكثر من اي فكرة اخرى ، هي فكرة الله ..

كان لا يتكلم كثيرا عنها بقدر ما يحب ان يتكلم ، ولكنه كان يفكر فيها دائما ..

ولست أعتقد ان هذه الفكرة ترجع الى أنه تقدم في السن، او لانه يحس بنهايته تدنو ، ولكن لانه يحس بأن فكرة الله متصلة بكرامة الانسان ..

كانت يداه رائعتين ، قبيحتين ، تعكر نعومتهما عروق منتفضه .. ولكنهما كانتا معبرتين تعبيرا قويا .. ولعل يدي ليونارد دافنشي كانتا تشبهان يديه ..

كان حين يتكلم احيانا ، يلوى اصابعه الى الامام والى الخلف ، بينما ينطق بكلمات رائعة ..

كان يشبه الها . ليس من آلهة الاوليمب .. ولكن الها روسيا « يجلس على عرش من الخشب ، تحت شجرة ذهبية من اشجار الليمون ..

ولعله كان بين كل الالهة اشدهم جميعا دهاء » ٠

ويستأنف جوركي ملاحظـــاته فيقول : « ان واحدا من الادباء المقربين الى تولستوي أحضـــر له كتيبا كتبه البرنس كروبتكين الفوضوي ، وكان الاديب متحمســـا لافكـــار هذا الكتاب ٠٠

ولكن تولستوي قال له :

ـ توقف ٠٠! لقد تعبت ٠٠ انك كببغاء ٠٠

انك لا تنطق غير كلمة واحدة : الحرية ، الحرية ، فماذا تعني بها بالضبط ؟٠

لنفرض انك حصلت على الحرية التي تعنيها ٠٠ فمـــاذا تكون النتيجة ؟٠

انها ، فلسفيا ، فراغ لا قاع له ، انك تصبح في الحياة، وفي الواقع ، شحاتا كسولا ٠٠

اذا كنت حقا حرا كما تتصور ، فماذا يربطك بالحياة ، وبالكائنات ٠٠؟

انظر ٠٠ الطيور حرة ، ولكنها تبني عشا ٠٠

ولكنك لن تذهب لتبني عشا ، ستـذهب لترضي غرائزك اينما عنّ لك ٠٠ وكيفما رغبت ٠

فكر جيدا لحظة ، وسترى ، وستحس أن المعنى النهائي لكلمة الحرية انها فارغة ، انها فراغ ٠٠ انها حيز لا حدود له٠

٠٠ ان الحرية معناهـــا أن كل شيء وكل شخص يتفق

معي ٠ ولكن ذلك معناه انني توقفت عن الوجود ، ذلك لاننـــا لا نعي بانفسنا الا لاننا في صراع ونزاع » ٠٠

أليس غريبا ان يثور تولستوي على « التشدق » بكلمة الحرية التي طالما تحدث عنها الفوضويون ٠٠ وفي نفس الوقت يعتبر فوضويا ٠٠ ؟

ان الفوضوية عند تولستوي قمة اخرى غير قمتها عند باكونين وتلميذه كروبتكين ٠٠

فتولستوي علـــى نقيض باكونيـــن وكروبتكيـن ، لأن تولستوي لا يؤمن بالعنف ، والآخرين يؤمنان به ٠

وتولستوي وجد الحل في الدين ٠٠

انه كغيره من المفكرين الذين تعمقوا في الدين، واحتاروا معه ، ثم وصلوا الى اكتشاف الدين دون رهبنة ودون طقوس ودون مسوح ٠٠ او نذور وايقونات : في العـــلاقة المباشرة الخالصة النظيفة بين الله والانسان ٠٠

انه مثل المفكرين الذين حاولوا العودة الى النبع الاصيل الاول للدين ، مثل من عادوا الى الثلاثين عامـــا الاولى من الاسلام قبل ان تظهر الفتنة وتتكون الدولة وتتجمد ٠٠ والى المسيحية قبل ان تصبح امبراطورية ٠٠

وقد وجد تولستوي الدين في اللحظات التي ينبلج فيها اول خيط من ضيائه لاول مرة على الارض : نظيفا صافيا ٠٠

وهذا الضوء قاده الى الحب ٠٠ الحب الذي تخلص من كل انانية ٠٠ « لا تقاوم الشرير ، يعني : لا ترتكب ما يتعارض مع الحب » ٠٠

ولهذا رأى تولستوي ان الحب المسيحي لا يتلاءم مع ما ترتكبه الدولة من اثم · « فالدولة تنوم المواطنين باسم الوطن، وتفسدهم لانها تفـــرض في نفسهـــا القـــداسة والسلطة ، وتضطهدهم لانها ترسلهم الى ·· الحرب · »

وقـد امكن لتولستوي ان يمارس هذا الحب الذي يصعّد ·· في حياته الخاصة ، الحب الممـزوج بالتواضع والعفو ، والذي بدونهما يصبح شيئا آخر ·

فقد تنازل عن لقبه ، وتنازل عن ضيعته الواسعة ، ولم تخدش الشهرة الواسعة تواضعه ، مع انه كان اشهر كاتب في روسيا اذ كتب « انّا كارنينا » و « الحرب والسلام » ··

ولم تفسد الثروة روحه ، ءاخذ يأكل كالفلاحين ويلبس لبسهم ، ويصنع حذاءه بنفسه ·· ومع ذلك لـــم يكـــن هذا الفوضوي الصوفي راضيا لا بعائلته التي انجب منهـا ثلاثة عشر ولدا ، ولا بشهرته التي طبقـــت الآفـــاق ، ولا بضيعته الواسعة ·

وفي رحلة جامحة قام بها تولستوي تحت سياط القلق مات الكونت على سرير حديدي نحيل في محطة سكة حديد ! ·

★ ★ ★

يبدو ان الفوضوية عادت الى عالم الاحلام المستحيلة كما بدأت ·· والغريب انها في اوروبا بدأت عنـــد جودوين الانجليزي في اواسط القرن التاسع عشر ، وعادت بعد قرن كامل الى عالم الاحلام ايضا عند هربرت ريـد ·· الانجليزي ايضـــا ·

وقد اوصدت ابواب التاريخ كلها امام الفوضوية الآن ·

وانهزمت في التطبيق كما رأينا على يد الاشتراكية التي استولت على عقول العمال في اوروبا ، ولم يعد للفوضويين مكان بينهم ٠

وظهر فساد نظرتها في الدولة التي كـــان الفوضويون يعتبرونها اداة دائمة للظلم ، لان التجارب الحديثة اثبتت ان

الدولة يمكن ان تقوم بدفع عجلة التطور ، وخاصـــة اذا كانت تمثل الاغلبية ٠٠٠ ومصالحها ٠٠

كما ان الدولة اثبتت انها يمكن ان تقوم باعمال جليلة كالتأميم والخدمات الاجتماعية ٠

وكل ذلك كـــان الفوضويون ينكرونه ، ولا يتصورون امكان حدوثه ، اذ كانوا يتصورون ان الشر طبيعـــة في الدولة دائما ، وهكذا اسسوا نظرياتهم كلها على هذا الاساس الذي اثبتت التجربة انه يتغير بتغير الظروف والازمان ٠

فهل بقي من الفوضوية شيء آخر الآن ؟

ذات يوم كنت امر في طريقي المعتـــاد بأحـــد شوارع باريس ، فاسترعت بصري جريدة ملصقـــة عـــلى الحائط ، والفرنسيون اعتادوا ان يلصقوا جرائدهم على الحيطان ٠٠

ولكن الذي جذبني ان هـــذه الجـــريدة مطبوعة على الطريقة القديمة التي تختلف عن بقية الجرائد ٠

وعندما اقتربت من الجريدة وجدتها احـــدى الجرائد الفوضوية ٠ وهي جريدة كانت تصدر منذ ستين عاما ٠

وحاولت ان اقرأ ، فوجدت اشعارا وآراء فنية ٠

وتساءلت :

الا يزال للفوضويين اتباع حتى الآن ؟

وعدت الى الجريدة ، اقراها فلم اجد فيها شيئا يتصل بالحياة الجارية ..

ولكني عجبت من بقاء الاخلاص لهذا المبدأ حتى الآن ..

وعندما قاربت من الانتهاء من قراءة الجريدة ، لاحظت ان الذي الصقها تخير لها مكانا خاصا على الحائط .. لانه الصقها تحت كتابة كتبتها البلدية بالخط الكبير : ممنوع لصق الاعلانات طبقا للقانون ..

ووقفت قليلا ، وأنا انظر الى الجريدة الملصقة والتنبيه المكتوب .. وابتعدت الى طريقي .. قائلا لنفسي :

ـ لعل هذا هو التحدي الوحيد الذي بقي للفوضويين .

بعض الكتب يبقى ، بعدما تدول الدول ، وتزول العهود ، ويختفي الحكام ..

الفاشوش

إذا كان العرب قد اشتهروا بتصوير الشخصيات الفكهة، التي اصبحت عندهم مضرب الامثال ، واصبحت من بعدهم نماذج انسانية شهيرة ، مثل اشعب الطفيلي ، وبنان الموسوس ، وأبي العبر المتحذلق ، وباقل العيي ، وهنبقة الاحمق «ولعله أصل كلمة هنبكة في العامية المصرية»، وغيرهم من النماذج كثير ، فلا شك ان صورة قراقوش اصبحت اشهر هذه الصور ، حتى يقال انها هي التي أوحت للاتراك أن يطلقوا اسم القره قوز على فنهم المعروف ، استلهاما من اسم قراقوش الذي اصبح يضحك الجميع ، وعلامة مسجلة على الضحك المقلق والسخرية الجارحة ٠

وقد كتب شرف الدين أبو المكارم بن أبي سعيد بن مماتي مؤلف « الفاشوش في حكم قراقوش » يصف في سطور قليلة هذه الشخصية الواقعية في عصره ، لانه كان أحد قادة صلاح الدين الايوبي ، وأقرب المقربين اليه ، فقال :

« انني لما رأيت عقل قراقوش محرفة فاشوش ، قد أتلف الامة والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدي بعالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدي لمن صدق ٠ ولا يقدر أحد ـ من عظم منزلته ـ أن يرد على كلمته ٠ ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما ما انزل الله به من سلطان ٠ صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى ان يريح منه المسلمين » !

فليس ابدع واروع من هذا الوصف الجارح لحاكم مستبد ، غبي متعاظم ، حين يقال عنه انه لا يهتدي لمن صدق، ولا يستطيع أحد أن يرد على حكمه ، وأنه يشتط اشتطاط الشيطان، وان الذي يتسابق اليه ، فيسبق غيره هو الذي يكسب الحق ، ولو لم يكن حقه ٠٠

ويروي ابن مماتي في كتابه الفـــاشوش بعض النوادر التي اصبحت عنوانا للحماقة وقلة الثقافة والاستهانة بالبشر فيقول :

جاءت الشرطة لقراقوش بأحد غلمانه الذين قتلوا نفســا بغير حق

فقال قراقوش :

ـ اشنقوه

فقالوا له :

ـ انه حدادك الذي ينعل لك الفرس فان شنقته ، انقطعت منه ، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك ٠

فنظر أمام بابه ، فرأى رجلا قفاصا

فقال قراقوش :

ـ أشنقوا القفاص ، وسيبوا الحداد ٠

وهكذا خيل لقراقوش انه يستطيـــع ان يشنق اي بريء مكان المذنب ، فالقصاص ليس للمجرم ، ولكنه أي قصاص يقع على أي انسان ، ولو كان عابر سبيل ٠

وقيل ايضا ان جنديا نـــزل في مركب وكـــان به فلاح وزوجته ، وهي حامل في سبعة أشهر ، فصدمهـــا الجندي ، وأسقط حملها ، فأخذ زوجها بتلابيبه ، وقاده الى قراقوش ، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة ، ويطعمها ، ويكسوهـــا ، ولا يعيدها الى زوجها الا وهي حـــامل في سبعة أشهر ، كمـــا كانت !

وقيل ان قراقوش طار منه طائر « بازي » ، فقال :
ـ اقفلوا باب النصر ، وباب زويلة حتى لا يجد البازي موضعا يطير منه ..

ويحكي ابن مماتي رواية اخرى عن غبائه وكبريائه ، فيقول انه رأى الجمال تسير عشرين عشرين ، ورأى ان النيل ـ في ذلك الوقت ـ كان هابطا فقال لغلمانه :

ـ نادوا في المدينة لقد أمر قراقوش الا يملي أحد من البحر الا جملا واحدا ..

فلما فعلوا ذلك ، أوفى النيل ، أي فاض وزاد

فقال قراقوش :

ـ ألم أقل لكم ؟ ان رأيي مبارك عليكم !

★ ★ ★

واحتكم شيخ وصبي الى قراقوش في ملكية دار. وتراءى لقراقوش ان الدار لا تكون الا للشيخ ، ولا تكون للصبي .

فقال الصبي :

ـ يا صبي .. ادفع له داره .. فاذا صرت في عمر ذلك الشيخ ، دفع لك الدار ..

وشكا اليه مدين انه يجمع دينه ، ويذهب به الى صاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ، ويلح عليه ، وهو خالي الوفاض ، لا يملك السداد ، فأمر قراقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه ، متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل ..

★ ★ ★

والقصص التي يحكيها ابن مماتي عن قراقوش لا تكتفي بتشويه سمعته ، وعقله ، بل تصوره احيانا غبيا أحمق، يبسط كل شيء معقدا ، ويعقد كل شيء بسيطا ، وهو الى ذلك شديد البأس عنيد الرأي على هوان هذا الرأي وسخافته ..

بل ويصمم ابن مماتي على ان يصوره جلفا له سلطان وحول وقوة . فيحكي ان شاعرا ذهب اليه يمدحه بقصيدة فلما تلاها عليه ، قال له :

ـ يا مقرىء ، قرأت قراءة طيبة

وكأنه ظن ان الذي يتلى عليه ليس شعرا ، وانما هو من القرآن وهذه آية في ضحالة الثقافة ، بل وفي انعدامها تماما.

ولو كانت سخرية ابن مماتي من الحماقة في حد ذاتها، أو الشطط والنزق في حد ذاته ، أو الظلم في حد ذاته ـ بما في كل ذلك من مفارقة بين المعقول واللامعقول ـ لأثارت هذه السخرية الضحك دون شك . ولكن الذي « يغذي » هذه السخرية ، ويجعلها لاسعة لاذعة ، ان الحماقة ليست حماقة رجل عادي ، وان الشطط ليس من فتى أهوج ، أو صبي أحمق، ولكن لان الظلم يأتي من انسان يستطيع ان يظلم ، فيصبح ظلمه قانونا وحكما نافذا على رقاب العباد ..

وقد كان تصوير ابن مماتي لشخصية قراقوش من التجهم والوحشية ، حتى حرض الناس على قراقوش ، وعلى كل قراقوش من بعده ، بل وحرض الناس على ان يتتبعوا كل القراقوشيين على امتداد العصور ، فاذا بكتابه يصبح ملكية عامة ، يضيف اليه العامة والخاصة والنابهون في التأليف أو التلفيق روايات وروايات ولو لم يكن المؤلف نفسه يحتل منصبا اداريا كبيرا لما استطاع ان يصور بلاهات القصور وشطط

الحكام على هذه الصورة . وكان ابن مماتي نفسه من كبار الموظفين في الدولة الايوبية ، فقد كان يحتل ما يشبه وزارة المالية او الخزانة ، ولعل ذلك ما أوحى له ان يضع هذا العنوان « الفاشوش » ، وهو الصفر علامة الافلاس والخسارة ، قبل اسم غريمه قراقوش . ويقول كازانوفا الفرنسي ، الذي اهتم – في عصره – باماطة اللثام عن هذا المخطط القيم ، ان ابن مماتي ، كان يسعى الى هز الثقة بقراقوش ، وهو قائد من قادة صلاح الدين الايوبي ، ومن أقرب المقربين اليه ، لانه كان يعهد اليه بامانة الاشراف على مصر ، نيابة عنه ، حين كان يضطر الى السفر الى سوريا للقاء الصليبيين .

ويذهب كازانوفا الى ان ابن مماتي اراد في الحقيقة ان يسخط الشعب على الدولة الايوبية الجديدة ، التي ورثت الحكم الفاطمي ، وخاصة ان الايوبيين كانوا من السنة ، والفاطميين من الشيعة ، ولذلك يمكن الظن بأن كتاب الفاشوش هو ضرب من كتب الدعاية السياسية وحرب الدعاية بين المذاهب ، مثلما نشهد في ايامنا هذه .

والاكيد المحقق الان أن ابن مماتي مؤلف الفاشوش ، والذي أضحك أجيالا بعد أجيال ، كان مؤلفا جادا ، كتب كتابا ثانيا غير الفاشوش هو كتاب قوانين الدواوين ، وأحصى فيه بلاد القطر المصري ، حين قام صلاح الدين الايوبي بمسح الارض الزراعية ، وكانت هذه هي المرة الخامسة التي تمسح فيها الارض .

ويقول الدكتور عزيز سوريال عطية ، الذي عنى بنشر هذا الكتاب المالي ، وعلق عليه ان ابن مماتي اعتذر عن ذكر بعض الارقام والمعلومات الهامة ، لانه كان يعتبر هذه المعلومات من « أسرار الدولة التي لا يجوز اذاعتها » .

فكيف يمكن أن نوفق بين صورة هذا المؤلف الذي يخوض في كتاب في الفكاهة ، ويكتب فيها بالعامية ، ثم يكتب في كتاب آخر بالفصحى عن الارض ومساحة المدن ويعزف عن اباحة اسرار الدولة ، فيرتفع احساسه بالمسؤولية الى هذا الحد المتعقل ٠

ان الصورتين تتكاملان ، لو علمنا أن ابن مماتي كان غاضبا حانقا بلا شك على القائد قراقوش الذي يقربه اليه صلاح الدين ٠٠

وهو حانق من وجهة نظر مذهبية ، كما يذهب كازانوفا ٠

وهو حانق كذلك ، لان أمور مصر ساءت على الرغم من الانجازات التي حققها صلاح الدين في الخارج ، من صفحات وضاءة في الفتوحات وصد الصليبيين ، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادي في الداخل ، واطلاق الشهوة القراقوشية ٠٠ ولعل هذا الوضع ، قد يبرر من زاوية الحكام باسم المصلحة العامة ، باستخدام اسلوب العصر ـ ولكنه لا يبرر من زاوية المحكومين دائما ٠

كما اننا نتصور ان حنق هذا الاقتصادي أو هذا المالي ابن مماتي على قراقوش ، هو حنق له ما يبرره ، لان الاقتصادي ينظر للامور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكري ، مما يثير الفرقة في النظر دون شك ٠٠

وقد كان عصر صلاح الدين الايوبي ، هذا الرجل الفاتح والبطل الفارس ، عصرا انتقاليا ، لقي من متاعب المقاومة الداخلية والمقاومة الخارجية ، مما يجعله عصرا فريدا حقا ٠٠ فمصر تنتقل فيه من مذهب الفاطميين الى مذهب السنيين ، والحكم الايوبي يلقى كثيرا من المعارضة في سوريا

وفي مصر ، ويسجل تاريخ مصر ثلاث فتن داخلية ، لم تخل من خطر أكيد ، حين استنجد عمارة اليمني بملك صقلية الاجنبي ليهاجم الشواطىء المصرية فاذا به في يوليو ١١٧٤م، يحاصر مدينة الاسكندرية بأسطول عظيم ، ولكن ملك صقلية يفشل، وتتراجع أطماع ملك بيت المقدس الذي كان ايضا يطمع في شن حملة مماثلة لحملة ملك صقلية تطيح بصلاح الدين ..

وقد لقيت الفكرة الايوبية كذلك مقاومة من اخلاف الفاطميين ، الذين استطاعوا ـ بعد شهرين من هذا الهجوم الخارجي ـ أن يثيروا فتنة في الصعيد ما بين أسوان وقوص، انضم اليها جموع من السودانيين الذين كانوا قد استفادوا من الحكم الفاطمي ، ولا يرضون عن هذا الحاكم الجديد !

وخلاصة ذلك كله ان عصر صلاح الدين كان عصرا انتقاليا ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من اضطراب ومنازعات، في الخارج من اليمن الى سوريا الى شواطىء مصر ، وفي الداخل في الصعيد وبين فلول الفاطميين ، بل وبعض كبار رجال الدولة كقاضي القضاة ، وناظر الديوان وداعي الدعاة وغيرهم ..

ولعل كل ذلك في أغلب الظن ـ هو الذي جعل صلاح الدين يفوض وزيره قراقوش بأوسع السلطات ، وأعظمها، مما جعل قراقوش نموذجا لهذا المستبد الذي يتعس الناس باستبداده ، فينتقمون منه بالضحك عليه والسخرية منه ، وتمزيق سمعته، والتجريس عليه كما كان يقال في ذلك العصر.

وحتى لو قيل أن ابن مماتي كان يحنق على قراقوش، لانه مقرب الى صلاح الدين ، وهو دون ذلك ، وان الاسعد بن مماتي ، قد ألف كتابا في المال ومسح المدن ، وهذا يعني انه لم

يكن ما عامة الشعب ، فان الاكيد أن هذا الكتاب قد كتب الى صلاح الدين ، كما يقول المؤلف نفسه ، « لقد صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » ..

ولكن ابن مماتي ما دام هو بالاديب الراجح العقل، الذي يكتب في علوم المالية ومسح الاراضي واحصاء المدن باللغة العربية الفصحى ، فلماذا كتب هذا الكتاب باللغة العامية ممزوجة بالعربية الفصحى ؟!

ان التجاء ابن مماتي الى العامية يرجع الى انه كان يرغب أشد الرغبة في اذاعة هذه الحكايات والنوادر بين الشعب ، حتى يؤلب عليه الرأي العام ، وحتى يدمغ عدوه بما كان يحدث فعلا منه أو بما شاء له الخيال الحاقد ، أو الناقد، ان يضيفه اليه من مفارقات لو تحققت بالفعل ، لكانت أعجب العجب حقا ..

ولو كان ابن مماتي اراد أن يشكو الوزير قراقوش ، لاستطاع أن يلجأ الى صلاح الدين ، دون ان يلجأ الى تأليف الكتاب وتأليب الرأي العام .

وهذا ما يرجح أن ابن مماتي ، قد ألف الكتاب بالعامية قصدا ، ولم يلجأ الى الفصحى ، أو شكوى الوزير للسلطان ، في السر .. مما يلجأ اليه الوزراء والحكام عادة في مثل هذه الظروف ..

فالقضية كانت عند ابن مماتي اكثر من ازاحة الوزير عن منصبه ، وكانت ـ في الحق ـ سخرية من الاستبداد وصنوف الحكم المستبد واستهتار الحكام برقاب المواطنين وحقوقهم وكرامتهم .

والذي يعود الى تفحص الاحـــوال الاجتماعية في ذلك العصر ، يجد أن عامة الشعب لم تكن تتمتع بشيء من الحقوق، وأن الارض نفسها كانت توزع بين السلطان والامراء والجنود، أي بين الطبقة الحاكمة كما يروي المقريزي في الخطط (الجزء الاول) مما يؤكد ان المظالم الاجتماعية كانت فاحشة وفظيعة، تثير حفيظة الناس ، ولو في السر ، فتنطلق ألسنتهم بالـــوان السخرية يتناقلونها انتقاما وتشفيا ٠

والعجيب أن ازدهار الفكـــاهة ـ كقاعدة عامة ـ انما تتوهج في عصور الانتقال، حين تختلط القيم الجديدة بالقديمة، ولا يتثبت الناس على قيم ثابتة ، ولا يأمنون على حال متواتر٠

فليس عجيبا أن يظهر رابليه ، أبو الفكاهة الفرنسية، في فترة انتقالية كذلك ، فينهش عصره (في القـــرن ١٥) نهشا ويسخر من العدوان على الناس والحقوق والمأكولات والنسوة٠

وقد كان رابليه هو استاذ موليير دون ريب ، لانه سبقـه الى مثل هذا النقد الاجتماعي الفريد ٠

وهذا هو رودولف اريك راسبي الالمـــاني الـذي يشوه صورة القرن السابع عشر ، فيبتكر شخصية هذا الجندي الذي يبالغ في بطولاته وكأنه هنبقـــة الاحمق (أو هنبكة كما نقول الان) ٠

فاذا كان ابن مماتي قد استطاع أن يدخل بلاط الحكومة، وأن يصور شخصية معاصرة ، باسمها ، دون مواربة ، فهو لا يخفي عداءه الشخصي له ، ولكن الروايات التي ألفها لا تقتصر على السخرية من شخص معين، بل تصبح بعد ذلك اسلوبـــا للسخرية من هذه المبالغة وذلك الشطط في الغباء الظالم ، أو الظلم الغبي المضحك الاليم ٠

واذا كان العلماء المحدثون ، ومنهم فرويد ، يذهبون الى أن الفكاهة تلعب دورا هاما في حياة الناس ، لانها تستبعد الالم ، ولان الانسان قد زود بامكانيات « هائلة » للتهرب من فرط الالم ، من الاستعانة بغيبوبة الخمر الى الوجد الصوفي الى الامراض العصبية الى فقدان الذاكرة ، فان الفكاهة تحرر الانسان من هذا الالم المفرط وتعيد اليه صحته وتوازنه ، ولو مؤقتا ، ولا شك أن الفكاهة الساخرة من المستبدين ، كانت تحفظ للشعب المصري هذه الصحة وهذه الشخصية السوية التي تتألم أفظع الالم ، من فترات الانتقال المليئة بالعجائب والنقائص والنقائض ، ولكنها لا تفقد رغبتها في رفض الاليم المؤلم ، وتمزيقه بالنكتة ، وفضحه باللسان الباتر ٠

ولقد تحول هذا الكتاب من كتاب مسند الى مؤلف بالذات الى كتاب يؤلفه الكثيرون ، ويضيف اليه العامة كل ما يلفقونه او يبتكرونه او يكتشفونه في المستبدين والقراقوشيين ، انما يجعلنا نرتفع بذلك المؤلف الى مصاف المؤلفات النادرة التي كان لها اكبر الاثر في مصر منذ القرن الثاني عشر الميلادي ٠

فاذا كان المؤرخون الغربيون يضعون حركة الاصلاح الديني اللوثرية في الغرب، كتوطئة لنشوء الليبرالية الاوربية، لمجرد أن هذه الحركة هزت قواعد الكنيسة ، وعارضت حقها في امتلاك الارض ، ويضعون كذلك كتاب مكيافيللي « الامير » كمقدمة لتحرير الفكر السياسي من الفكرة الدينية ، واخضاع السياسة للاغراض المادية ، حتى ولو كانت هذه الاغراض دنيئة شديدة الدناءة ويظن هؤلاء المؤرخون ان هذه الارهاصات كانت مقدمات لتحرر العقل الاوربي من غيوم القرون الوسطى٠ فاننا نظن أكثر الظن ، ان كتاب الفاشوش في حكم قراقوش، وخاصة بعد تحوله من كتاب خاص بمؤلف واحد الى ملكية

عامة يضيف اليه المؤلفون المعروفون والمجهولون ، انما ساعد على تحرير المصريين من فكرة الحق الالهي في الاستبداد ، او فكرة الحكم المطلق حين كان السلاطين يجمعون بين السلطة الزمنية والدينية ويطلقون العنان لشهواتهم ومظالمهم وجموحهم الغريب ٠

فهذه السخرية التي مزقت فكرة الاستبداد ، وشوهت المستبدين ، ووصمتهم بالحماقة والشذوذ ، انما هي سخرية ترقى الى ذرى الادب الانساني الرفيع ٠

ولقد آن الاوان لان نكشف عن هذا التراث الفكاهي الرائع ، بل وان نكشف ما دار في هذه العصور من مقاومات شعبية ـ لم تكن تخلو احداثها من مظاهرات فكاهية ايضا ـ مثل ثورة عبيد القاهرة (١٣٦٠) كما ذكر المقريزي في « السلوك » وكتلك الثورة في عهد قلاوون والتي ذكرها ابن بطوطة في رحلته ، وثورة ابن الفلاح المشعشع (١٤٥٣ ـ ١٤٥٧) ٠ وثورة البدو قبل ذلك في عصر بيبرس (١٢٥٣) ، والهوارة (١٢٥٣) ، بل وثورات الحرافيش والزعر في القرن ١٤ ، على ما يروي ابن اياس في كتابه النفيس « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ٠

فأغلب الظن ، ان كتابا مثل كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وما اضيف اليه من مؤلفات على اسمه ، او اضافات الى نصه ، كان هو الذي يغذي عامة الشعب بفكرة الرفض والاحتجاج ، ويغذيهم بالنكت والنوادر والسخرية التي تساعدهم على الاستهانة بالمستبدين والقراقوشيين ٠

وبعض الكتب يبقى بعد ما تدول الدول وتزول العهود ويختفي الحكام ٠

انني لم اقتل احدا
حتى اكتب تاريخ
حياتي .

برنارد شو

مدرسة الشباب المحرقة

كثيرون

في انحاء العالم يعرفون شيئا قليلا او كثيرا عن سخرية ج.ب.ش ولكن كثيرين يغفلون انه كان مكافحا مؤمنا بالاشتراكية ـ في وقت عز فيه الايمان بهذه الفكرة ـ وانه كان يدعو لها على نواصي الشوارع وفي الاجتماعات العامة ، بل وكان يخطب في المظاهرات ، التي تصطدم غالبا بالبوليس ، وكان يولي الفرار قبل لحظة الارتطام بثوان كلمح البصر !

وقد كتب جورج برنارد شو عن كل شيء في المجتمع تقريبا .. ولكنه اعتذر عن الكتابة عن نفسه .

وقال : انني لم اقتل احدا .. حتى اكتب تاريخ حياتي! وكل ما عندي كتبته في كتبي ومسرحياتي .. فلا يوجد كتب عميق لا يروي حياته .. في كتبه ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟!

ولو انك قرأت كتابا عن حياة شكسبير مثلا ، دون ان تعرف هاملت وكليوباترة ويليوس قيصر والملك لير ! فماذا ستجد ؟!

لا شيء غير سيرة رجل ينام ويأكل ويشرب ويكاد يشبه كل رجل في انحاء العالم !

وهكذا رفض شو ان يكتب قصة حياته ، على الرغم من الحاح الناشرين وفضول القراء ..

ولكنك تستطيع ان تجد سيرة شو الآن في كل كتاب سياسي عن تاريخ الاشتراكية البريطانية .. وفي كل كتاب عن المسرح الاوروبي .. وفي كل كتاب عن نقد الموسيقى .. فلقد ترك شو تركة ضخمة في السياسة والادب والفن ، وطالت حياته الى حد الضجر بالحياة او على الاصح الضجر بالمجتمع الذي عاش فيه ، فاستهزأ به ، ومزقه وحطم اصنامه .

وشو يتذكر مطلع حياته في ايرلندة ، ودبلن ·· عاصمتها التي ولد فيها ويتذكر انه حين ولد كانت عربات الترام فيها ثلاث درجات اولى وثانية وثالثة · وكانت السيدات الراقيات ، والمهذبون من طبقة « الجنتلمان » يرفضون ركوب الدرجة الثالثة ··

وكانت مدارس ايرلندة تسمى بمدارس «الثياب الممزقة» ··وكانت نساؤهم واطفالهم لا يلبسون الاحذية الا في المناسبات الهامة « كحضور قداس ، او توديع مسافر عزيز » ·

وكانوا ـ وهم اطفال ـ لا يقتربون من ابناء الاغنياء الا للاشتباك معهم ، في حرب تشبه حرب العصابات ··

وقد بدأ شو حياته ساعيا في احد البنوك ·· ويقول انه بدأ ساعيا متواضعا ، ولكنه لم يكن يجمع الاوراق من سلال المهملات ، او يلمع اكر الابواب النحاسية ·· بل تركوا له شرف احضار السندوتشات في فترة الغداء « لنفسه » اولا ، ثم للآخرين ·

وحين خلت وظيفة صراف بالبنك ·· تنبهوا لفطنته ، او لحسن تصرفه ·· فعهدوا اليه بالوظيفة الجديدة ، واصبح « موظفا » لاول مرة ·

ولم يكن احد يتصور ان هذا الايرلندي الذي يجلس بانتظام كل صباح الى جوار شباك صرف النقود ·· ووراءه صندوق مليء بأوراق النقد سيكون له فيما بعد كل هذا الدوي· فلقد بدأ اول الامر صرافا ككل الصيارف ··

بل اخذ يقلد خط الصراف الذي سبقه في الوجاهة والاتقان والعناية ، وكأنه ولد صرافا ورث المهنة عن العائلة ·

ويقول شو ان الانجليز عموما ليست لهم موهبة خاصة الا في الوظائف الكتابية الكئيبة ، في الاعمال البيروقراطية٠٠ فمن الصعب ان تحول اعرابيا بدويا الى موظف حكومة ولكن من السهل جدا ان تحول انجليزيا الى « بيروقراطي موهوب »٠

اما كيف يتحول الانجليز الى موظفين ٠٠ فالقصة ليست معقدة وليس فيها سر ٠٠

« فليس عليك الا ان تكون من ابنـــاء الطبقـة الوسطى الفقيرة ، وان يعجز ابوك عن ان يعطيك مبلغا من المال تبدأ به حياتك العملية ثم يعجز عن الانفاق على مواصلة تعليمك ٠٠ وبعد ان تتعلم القراءة والكتابة ٠٠ يحس ابوك بالخجل من ان تصبح ميكانيكيا في جاراج ٠ ولا يصبح امامك بعد ذلك الا ان تصبح موظفا في بنك » ٠

وقد استفاد شو من هذه القاعدة واستفاد من الجلوس على البنك بالقرب من صندوق الاوراق المالية ، ويقول ان هذه الحياة عودته على الدقة والانتباه والعمل اليومي المتواصل ٠ وبدلا من ان احلم احلام اليقظة ، اخذت اتعود علـى المهارة الفنية والروح العملية والرغبة في الاجادة » ٠

واخذ شو ، المتواضع الحال شديد الطموح ـ يبادل احد اصدقائه من موظفي البنك الخطابات ٠ وكثير من الادباء بدأوا تجاربهم الاولى في الكتابة في خطابات ٠٠ ولكن برنارد شو اتفق سرا مع صديقه على ان يحرقا الخطابات بمجرد وصولها « خوفا من ان تقع في ايدي المؤرخين ٠٠ فيما بعد !! » ٠

وتعرف شو على ابن عم « بل » العالم الـــذي اخترع التليفون ، واخذ هذا الصديق الجديد يوجه ذوق شـــو الى الموسيقى الرفيعة ٠

فلقد ورث شو حاسة موسيقية دقيقة من امه التي كانت تغني في اوقات الفراغ ، او اغاظة في ابيه !

ولكن الصديق الجديد قدمه الى العزف الجيد ، فبعد ان كان يسمع الاوبرات على اسطوانات تعزفها فرق نحاسية من الدرجة الثانية ، اخذ يكتشف الموسيقى الرفيعة وعزفها المتقن كما يجب ان تسمع !

ويقول انه اشترى اسطوانات اوبرا فاجنر المعروفة ، واسمها لوهنجرين ، وهي قصة من اساطير الجيرمان ، مشوبة بالخيال ، والعنف ، ولم يكد يسمع بعض الحانها الاولى ، حتى احس بانقلاب كبير ، « ومنذ الحين اصبحت الموسيقى غذائي اليومي » .

وحين يأتيه المزاج ، كان يجمع الموظفين المؤهلين والذين بدأوا يعملون تحت قيادته .. وكان يعلمهم بعض الحان الاوبرا .. وكثيرا ما كانت ادارة البنك تضبط ج.ب.ش. وقد ترك اوراق المال والخزانة ووقف في ساحة الغرفة ، يرفع عقيرته بالغناء ، والموظفون ـ من حوله ـ كورس متابع ، او منافق لرئيسهم المباشر الفنان الموهوب !

ولم يترك شو كتابا في هذه الفترة لم يقرأه .. واخذ يدرس الايطالية ، حتى تساعده على « فهم » الموسيقى .. وكان شو يعزف على البيانو . وظل منذ ذلك الحين مرتبطا بالموسيقى والنغم ، حتى ضاق بدبلن وايرلندة وعيشة الارياف .

ويقول شو ان « هجرته » ، وقد استخدم هذه الكلمة العربية باللغة الانجليزية ، بدأت في عام ١٨٦٧ الى لندن ، ووصل اليها ، بعد ان انفصلت امه عن ابيه .. وتوفيت شقيقته الشابة التي يحبها بود حميم ، « ودخلت الى لندن

كأنني من الاجانب ، لانني ايرلندي ، وكأنني ريفي لانني قادم من الاقاليم ، ورفضت لندن ان تسامحني او تتسامح معي » ٠

ويصف شو هذه المرحلة من حياته بروح الدعابة ، فيقول انه كان في هذه الاثناء ناشرا لا كاتبا ٠٠ وقـــد ظـل تسع سنوات ، لم يكسب فيها ـ من الكتابة ـ الا بضعة جنيهات تعد على الاصابع ٠

وكان اول « اعماله » الادبية كتيبا من كتـــب المدارس الابتدائية ٠٠

فلقد اعلن ناشر عن هذا الكتاب ٠٠ فأرسل شو الكتيب من باب التجربة والفكاهة ٠٠ ولـــم يهتـــم بكتابته ٠٠ او مراجعته ٠٠

ولكن الناشر فاجأه بارسال خطاب شكر مصحوبا ببضعة جنيهات ٠٠

واشتعل شو حماسا ، فكتب كتابا آخر ـ عـــلى هذا الغرار ـ ولكنه اخذ يحسن في الكتابة ، وهو جاد هذه المرة كل الجد ، فقد وجد اخيرا مصدرا لبعض المـــال الحلال ٠٠ ويقول شو بسخرية ، ان الناشر لم يسأل عنه !

« اذ يبدو ان الكتاب الذي كتبه شو ـ على سبيل الفكاهة ـ هو الذي اعجب الناشر ٠٠ اما الكتاب الذي التزم فيه جادة الصواب وبذل فيه غاية الجهد ، فلم يعجب الناشر ، ولم يتفضل عليه حتى بخطاب ٠٠ علم الوصول » ٠

وظل شو عشر سنوات كاملة يقرأ ويكتب ٠٠ دون ان يتحول من ناشر الى كاتب ، ودون ان يعثر علـــى ناشر او جريدة ، حتى عثر عليه ويليام ارشر ، الذي اصبح فيما بعد

من كبار النقاد المسرحيين ٠٠ وكان شـــو يجلس في مكتبة المتحف البريطاني ، التي كان يتردد عليها من قبل ، رجل لـه لحية كثة ٠٠ وعيون جاحظة ملتهبة : ولا احد يحس به ايضا او يدرك انه سيكون له دوي يقلقل اوروبا والعالم فيما بعد ، وهو كارل ماركس ٠٠

وكان شو منكبا على النسخة الفرنسية لكتـــاب كارل ماركس « رأس المال » ٠٠ ولم تـكن الترجمة الانجليزية قد طبعت بعد ٠٠ ولان ماركس كتبها اول الامر بالالمانية ٠٠

وكان امام شو الى جوار كتاب « رأس المال » لماركس ، التوزيع الموسيقي لاوبرا فاجنـــر المشهـورة ٠٠ « ثريستان وايزولد » وهي قصة الحب الخالدة في بروسيا ٠ وهي تشبه روميو وجولييت عند الانجليز، وعنتر وعبلة او جميل وبثينة عندنا ٠

واقترح عليه صديقه ارشر ان يتولى مراجعة الكتب ، ونقدها في جريدة اسمها بول مول جازيت ، وبدأ شـو يكتب لينشر ، بتوقيع مستعار ، ولم يحظ بنجاح ملحوظ ، ولكنه نعم بصداقة ارشر هذا ٠٠ وهو اسكتلندي من عائلـــة ميسورة الحال ، وكان يعرف النرويجية ٠٠ وقد تحمس اشد الحماس للكاتب المسرحي النرويجي ابسن ٠

وعن طريق ارشر عرف شو مسرحيات ابسن ٠٠ وبدأ يتلمس طريقه في الكتابة ، وابتعد عن كتابة القصة ، وحاول كتابة المسرحيات ، فكتب مسرحية لـــم يكملها من فصليـن وتركها ٠٠ وتوغل شو ـ الى حد التهور ـ في كـل ما يجدد بلندن متصلا بالثقافة والفكر ٠٠ فتعرف على الفوضويين ، ثم على اتباع جيمس مـــوريس الاشتراكي الانجليزي ٠٠ وفي

الوقت الذي اخذ يلتهم فيه الماركسية والعلوم الاقتصادية كان يقرأ التاريخ ويتعرف على الموسيقى والثقافة الالمانية ٠٠ وفي هذه المرحلة ـ مرحلة الامتصاص والاحتراق والجدل العنيف ـ عثر على وظيفة ناقد موسيقي في جريدة متواضعة الذيوع ٠٠

واخذ شو يكتب باسم مستعار ٠٠ وهو كورنو دي باستيو ٠٠ وهو اسم آلة الكلارنيت بالايطالية ٠٠ ولدهشته ـ العظمى ـ كان هذا العمود هو انجح ما كتبه في هذه الفترة ٠٠

فقد امتلأ بالذكاء اللماح والسخرية اللاذعة ، وظن كثيرون ان المؤلف ايطالي لان برنارد شو لم يوقع مقالاته الا في عام ١٨٩٠ ، اي بعد ثلاثة عشر عاما مليئة بالفشل والعناد ٠٠

وتستطيع ان تلمس بذور السخرية في تربية شو نفسها. فقد ورث الموهبة عن امه ، وورث السخرية عن ابيه ٠ وان كانت سخرية ابيه جافة ، ليس فيها لعب افكار ، او تلاعب الفاظ ٠٠ ويبدو ان اباه كان شخصية عجيبة ، من تلك الشخصيات التي تأتي بأغرب الفكاهات ، وافقعها لونا ٠٠ ولا تلمح على وجهها ولا طيف ابتسامة ٠

اذ يحكي ج٠ب٠ش عن ابيه قصة قصيرة حدثت في طفولته تستطيع ان تكتشف فيها روح هذا الاب الغريب ٠٠

فقد كان ابوه يعلمه السباحة ٠

ويقول شو : « ابي هو اول من علمني السباحة ، واول من انزلني الى المحيط » ٠

« وحين كنا في الماء ، قال لي :

ـ عليك ان تتعلم السباحة فلقـــد استطعت بفضلها ان انقذ عمك ـ ذات يوم ـ من الغرق ! »

وحين خرجنا الى الشاطىء ، قال لي ابي : وهو بين الجد والهزل : ـ لا اخفي عليك انني لم آسف في حياتي ـ على طولها ـ على شيء سوى اسفي على انني انقـــذت عمك من الغـرق !

ولم يستطع الطفل ان يتبين اذ ذاك ، هل كانت نكتة ·· ام قصة حقيقية !

ولكن هذا الايرلندي العنيف العنيد الذي تتوهج في عقله المفارقات وتصرخ في قلبه المرارات غزا لندن بقراءاته وثقافته ·· وقد شجعته عادته القديمة على العمل اليومي المتواصل على التهام اكبر قدر من الكتابات ، ولم يترك لغة الا وحاول تعلمها ، او على الاقل التعرف عليهـا ·· فعـــرف الالمانية والاسبانية والايطالية، واغرق في دراسة التاريخ ··والاقتصاد والمذاهب ·· والموسيقى والفنون وشكسبير وابسـن وفاجنر وماركس، حتى اختلطت الاغاني بالافكار، والتجارب بالمبادىء والقى بنفسه ـ في ملتقى التيارات ـ متحررا باحثا كمسافر بلا وجهة ولا مقر اخير ·

وانضم شو الى جمعية « الاصلاح الزراعي » ، وانشق عليها لينضم الى جمعية ناشئة اسمها جمعية الفابيين ·· وهي جمعية اشتراكية تكونت من بعض المثقفين ··

وقد اختار اعضاء الجمعية اسم « فابيوس » وهو اسم قائد روماني ·· تغلب على هانيبال وهزمه ·

وكانوا يريدون ان يرمزوا الـــى ان طـــريقة تطبيق

الاشتراكية في انجلترا ستكون عن طريق « التسلل » ·· و « الصبر » ، لان فابيوس تغلب على القائد هانيبال العظيم ، بالالتفاف من حوله ، وضربه من الجوانب ، بدلا من الصدام معه وجها لوجه ··

ويقول جون جراي ، احد اعضاء هذه الجماعة ان شعار الجمعية الاشتراكية الفابية ، تمثل في هذه البيتين من الشعر ·

« فليكف المعترضون ، على طريقتي المتأنية ··
فانني مثل فابيوس ، اكسب مع الوقت » ·

ولكن الجماعة عدلت هذه الشعار « الشعري » والف الكاتب بدمور بضعة سطور تشرح الفكرة ، فقال :

« لا شك ان اناة فابيوس وطول تفكيره الذي اعتبره الكثيرون تأخيرا لا مبرر له ـ انما كان للمحافظة على جميع الرجال من مواطنيه وجماعته ·

فعليك ان تنتظر اللحظة المناسبة ، كما فعل فابيوس ·· بصبر شديد في قتاله مع هانيبال ·· وحين يحين الوقت، عليك ان تضرب بشدة ، كما فعل فابيوس ، والا كان انتظارك هباء ، ولا طائل وراءه » ·

ويقول شو انه « قرر » مصادقة سيدني ويب ·· وهو احد العقول الاقتصادية النادرة ·· وقد استفاد اكبر الاستفادة من بحوثه ومناقشاته · وبدأ شو يكتب مقالاته التي نشرت مع مقالات آخرين عن الاشتراكية الفابية ، واحدثت هذه المقالات دويا ، وبدأت تخلق تيارا اشتراكيا « معتدلا » اذا قيس بتيار جماعة هيندمان الماركسي ·· ولكنها كانت في مجموعها جديدة متطرفة في نظر المحافظين ·

★ ★ ★

وقد بدا الفابيون مشتركين في كتابة هذا الكتيب الصغير ٠

ـ لماذا هذا العدد الكبير من الفقراء ، وفضحوا في كتابهم سوء توزيع الدخل ، وفحش الرأسمالية البريطانية وادعاءها الاجوف بالعظمة والمجد ٠٠ وهي في الحق فقر واملاق وتضييق ٠٠ على الاغلبية ٠

واستغرقت الجمعية تفكير ونشاط شو ٠٠ وكانت الانشقاقات كثيرة والمناقشات عنيفة بين الاعضاء ٠٠ او بين الجماعة والجماعات الاخرى ٠ « واعتقد انني كنت مفيدا في هذه الجمعية ، فكلما حدثت مشادة عنيفة ، كنت احاول تحليل موقف الاعضاء ٠ فكانوا ينتهون الى اتهامي ٠٠ وكان يشفع لي انني ايرلندي واحيانا انني مجنون » ٠٠

وقد افادته الجمعية فائدة كبيرة ٠٠ « فلولا انتقادات الاعضاء وهجومهم لما استطاع ان يبلور افكاره في مسرحياته » ٠

واستطاع شو ان يتخلص من كثير من عيوبه ٠٠ واستطاع ان يتخلص ايضا من نظرية الفن للفن ٠٠ وهو يقول هنا : « كل محاولاتي تحت شعار الفن للفن ، انتهت بالفشل ٠٠ وكانني كنت اغرز المسامير في الورق » وهو يرد كل فضل في تفتحه الفني وتوقده الفكري الى الماركسية وماركس ٠٠ حتى لقد قال « لقد جعلني ماركس اشتراكيا ٠٠ وانقذني من ان اصبح اديبا » ٠

وشو يقصد ان الادب الفيكتوري ، وادب شيكسبير كانا يسيطران على العقول والقلوب في انجلترا ، ولو انه لم يهتم بالماركسية والطبقات ، ولم ينتبه الى هذا الصراع المدوي

الفظيع لاصبح اديبا كلاسيكيا ·· يجري وراء المحسنات اللفظية والموسيقى ، ويهرب من الافكار والمبادىء ·

وقد نفعته تجربة العمل الصغير المتواضع في التعود على العمل اليومي ، كما يقول ، ثم انضجته مهنة الصحافة ·· في التلفت فيما حوله ·· والانتباه لما يدور في مجتمعه وعصره· ولكنه انتهى بالتقزز من مهنة الصحافة كمهنة ·

فهو يقول ان الصحافة اليومية تعلم الادباء كيف يفسدون اعمالهم ·· وقد تكون المجلة الاسبوعية مملة · ولكن السهولة ـ ولا اقول التفاهة ـ التي يكتب بها الادباء في الصحافة تجعلهم يقفون عند انصاف الحقائق ·

والصحفيون يقفون دائما عند البديهيات والمظاهر ·· ولا يتعمقون ·· والحقيقة الساذجة لا تزور الا في ذهن الطفل والعبيط ·· ولذلك لا تنفع الصحافة الا للشبان ·· ولكن على هؤلاء الشبان ان يعيشوا بزهد وبساطة حتى يستطيعوا البحث عن الحقيقة ·· والكتابة عنها بصراحة ·

وقد انكشفت لبرنارد شو صفاقة المتأدبين في الصحافة ·· وغرورهم بأنهم يبحثون عن الحقيقة ·· وهم في الحقيقة يقدمون كل شيء ·· في وجبات تفسد العقل ·· وتعطل الدورة الدموية !

ومن هنا زهد برنارد شو في الصحافة · كما زهد في المعل السياسي اليومي في جمعية الفابيين ·· واتجه الى المسرح ·

وشن شو هجوما مستمرا متواصلا شاملا على اخلاقيات الرأسمالية ·· وفضائحها ومخازيها ·· فلم يترك

مشكلة او ثغرة الا وفضحها او وسعها ·· ولم يغفل شو عن عيوب الرأسمالية ·· وعيوب العمال ايضا ·· وخاصة كبار وصغار العمال من الموظفين الذين يبيعون النقابات لاصحاب رؤوس الاموال ·

بل لقد كان يصف عمال الحركة العمالية بأنهم رؤساء شركات رأسمالية اسمها النقابات ··

واخذ يفضح الرأسمالية ·· يحلل الزواج غير الموفق بين الغني القبيح والفتاة التي لا تملك سوى بيع فضائلها ·· وهو يفضح مهنة الدعارة ·· ويفضح الذين يبيعون اجسادهم من الشبان ·· ومن وراء ذلك تقزز من تأثير المال على النفس وتأثير الرأسمالية على المجتمع ··

وقد كان شو من اعدى اعداء السطحية والانتهازية ·· وهو في هذا لا يفرق بين سطحية الاغنياء المغرورين ·· او انتهازية « العمال » الذين سموهم فيما بعد « اصحاب الياقات البيضاء » ·· لانهم لا يعرقون ولا يتعبون ولكنهم يبيعون عرق زملائهم في مفاوضات ومقاولات وصفقات نقابية ·

وقد ظل شو مخلصا للافكار الثورية التي امتصها في صدر حياته ·· فهو يهزأ بالعمل البرلماني التقليدي · ويقول ان العمل البرلماني لا يغني عن الثورة ·· وهو ينبه زملاءه من الساسة والقادة « ان من المحتمل ان تستسلم الرأسمالية بلا قتال ! » ·

ولكن اي سياسي يعتمد على هذا الاحتمال ·· يكون مفرطا شديد الافراط في التفاؤل ·

وهو يقول على لسان ابطال كثيرين في مسرحياته « عربة التفاح » و « على الصخور » :

ـ « ما دامت القوة العنيفة تحمي هذا النظام الرأسمالي فلا تسقطه سوى القوة » ٠

ولكن برنارد شو نفسه احس انه لا يستطيع ان يصبح « جنديا » في معركة الاشتراكية ٠٠ لذلـــك اختار ان يكون « قديسا » ساخرا ٠٠

فهو يضرب ذات اليمين وذات اليســـار ٠٠ يسخر من الحاكم الرجعي ٠ ويقول على لسان الملك في مسرحية « عربة التفاح » :

ـ لو انني كنت انسانا حقا لما اصبحت ملكا ٠
انني مجرد صنم ٠٠
وكل ما استطيعه ان اكون صنما رحيما ٠٠

وهو في نفس الوقت يسخر مـــن رؤســـاء النقابات الرجعيين او الانتهازيين فيقول على لسان رئيس النقابة ٠

ـ لا يوجد ملك يطمئن على ملكه مثل رئيس النقابة ٠

وهو يهزأ من الحركة العمالية المتلعثمة المترددة ٠٠ التي استولى عليها الانتهازيون وتجار الصفقات ٠٠ والذين يرضون بالحصول على الاعانات الاجتماعية بدلا من الكفاح السليم ٠٠ فيقـول :

ـ اطلق قطة في الارض ٠٠ تجد القطة قوت يومها ٠٠ لكن اطلق عاملا انجليزيا فستجده يموت جوعا ٠٠ فاذا بدا لك ان تشتريه بقروش قليلة ٠٠ تدفعها لـــه معونة بطالة ٠٠ استطعت ان تأمن شره !

يا لها من مشقة ..
ان نتقـــدم في الحيـاة
وحدنا .. منفردين ..
لا احد معنا .

سن الخامسة عشرة
اروع الاعمار .

انه عمـر البكاء من
اجل البكاء .

امرأة ذات سيادة

لماذا

لا يوجد عندنا ادب نسائي ؟ ولماذا تكتب اغلب كاتباتنا النابهات ـ فيما عدا قلة نادرة جدا ـ كما يكتب الرجال ٠٠ نفس الاسلوب ٠٠ نفس الضخامة او الرصانة او الجزالة ٠٠ فلا تجد في كتاباتهن انفاس المرأة ٠٠ او نفسيتها ومشاعرها الا في النادر القليل ٠٠

ولماذا تجد هذه اللهجة النسائية في كاتبات مثل مدام دي ستايل وجورج صاند ، ثم تجدها بعد ذلك في كوليت الفرنسية، والآن تجدها في سيمون دي بوفوار ، سيدة كاتبات العصر . او عند ماري مكارثي كاتبة امريكا الاولى ؟!

عند دي ستايل،وجورج صاند تجد الرقة والرومانتيكية٠ زهرة الصالون الادبي الذي يعبق بالشعر والمنادمة واحيانا بالمغامرة الخفيفة او المفجعة ٠ ثم كوليت هذه الاديبة التي كانت تحب القطط ، وتعدد الازواج ، والتي كشفت عن عالم المرأة في بداية هذا القرن ، بداية التحرر من قبضة الرجل ، عالم الغيرة القاتلة ، والفواجع الغراميـــة والمباريات العاطفية ، عالم لا يمكن ان نحس به كرجال او نكتب عنه كرجال ، لانه عالم مغلق تماما ٠٠ وقليلا ما تتكلم المرأة ٠ واقل مـــن ذلك ان تتكلم بصراحة ، ولكن كوليت تكلمت ، فأفاضت ، وكشفت اسرار المرأة في عصرها ٠

واذا بسيمون دي بوفوار ، تصبح الآن من بعد هؤلاء الكاتبات ، اكبر اديبة في العالم ، لانها لم تنس انوثتها ، وحتى لو كتبت اعمق البحوث واصعبها ، فقد راعت ان تكتب بقلم فنانة واديبة ، ولم تكتب هذه المجلدات الضخمة التـــي كتبها سارتر عن الوجود والعدم ، بل ولم تكتب مسرحيات اسطورية او عصرية ، وحين كتبت هـذه المسرحيات لم تـــرض عنها ، وأقرب الكتابات اليها هو الاعترافات ٠

ظاهرة عجيبة تسترعي الانتباه بلا شك ٠

هل السبب هو نقص خبرة اديباتنا ٠٠ او هو هذا الحجر الصحي الذي يفرضه القراء ، واغلبهم من الرجال ؟

هل هو نقص في الصراحة او نقص في الجرأة ؟

سؤال نطرحه ، ونتركه بلا جواب ٠٠

بصراحة : لانني لا اعرف الجواب تماما !

فالذي اثاره موضوع لا يتصل باديباتنا او ادبنا العربي، انما اثار مكامنه ما وصلت اليه هذه الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار من صيت وشأن ، حتى ان كتابين كبيرين ظهرا عنها في وقت واحد ، واحدا منهما كتبه فرانسيس جيسون سكرتير جان بول سارتر ، وصديقه ، وبالتالي صديق سيمون دي بوفوار ٠

وفي هذا الكتاب الاخير ، يحاول المؤلف ان يضع سيمون دي بوفوار ، في وضعها الصحيح بين الادباء والمفكرين ٠ ويحاول ان يضع كتبها في الترتيب الصحيح ، وحين سألها ما هو ابغض الكتب اليك قالت : كتابي الاول ٠

وكتاب « الزحف الطويل » الذي كتبته عن الصين ٠

ـ وما هو احب الكتب اليك ؟ ـ وهذا سؤال تقليدي لا يتوقف صحفي او كاتب عن ان يسأله ٠

قالت : « الجنس الآخر » ٠

وفي فرنسا كتاب عاشوا على المغامرات العاصفة ، والرحلات الشاردة ٠٠ وكانت حياتهم شاذة ، اندريه مالرو مثلا ، كان يعيش على المغامرات الجنونية في الهند الصينية والصين قبل ان يكتب حرفا واحدا ، اندريه جيد ، صاحب الرحلات الطويلة في الشرق والغرب كان مصابا بالشذوذ

فانطقه ادبا وتجلت منه آيات الروعة الادبية ، من فرط الحساسية والتوهج ، جان بول سارتر نفسه ، حياته تقلبت بين المقاومة والسجن والحياة الاكاديمية ·· مرض في بطنه من فرط الحساسية النفسية ، حتى انقلب « الغثيان » عنده من احساس نفسي الى مرض بالبطن والجسد ·

وبعض ادباء فرنسا النابهين كان لصا « رسميا » مثل جان جينيه الذي تبناه سارتر اخيرا ، او كان ساديا شاذا مثل الماركيز دي ساد · وبعضهم وصل الى شيء ما في حياته ·· وكثيرون فشلوا فاصبحوا انصاف ادباء ، او قراء مدمنين ، او ناشرين مغامرين !

والقاعدة العامة ان فرنسا لم تعرف اديبا نابها ، الا وكانت حياته ايضا عريضة عميقة ، ولكن حياة هذه الاديبة ، التي تمتلك اليوم ناصية هامة في الادب ، هذه السيدة القريبة الى القبح النبيل منه الى الفتنة الانثوية ·· سيمون دي بوفوار، كانت حياتها باهتة جدا ·· عادية جدا ·

فكيف استطاعت سيمون دي بوفوار ان تصبح اديبة ، وان تضيف للادب صفحة وصفحات ؟!

لعل السر الحقيقي في ادب سيمون دي بوفوار انه ادب الحياة العادية اليومية ·

حياة الفتاة ، الطالبة « ثم المدرسة ، ثم الصديقة ، ثم المحبة والعاشقة ، حياة تمر بأي امرأة ·

والسر الثاني في ادب سيمون دي بوفوار ان الوجودية نفسها تتكلم عن وجود الانسان · عن وجوده في الحياة ، مع الآخرين ، عن ابسط حوادثه · وابسط حكاياته ، وفي هذه الحياة البسيطة العادية من ملايين وآلاف ملايين الحياة ، يوجد سر الفكر العميق وسر الفلسفة الكبيرة ، فلم يعد الادب العظيم هو الذي يتناول اعظم القضايا واعقدها فحسب · بل ان الادب العظيم اصبح هو الادب البسيط ·

في حياة المرأة البسيطة ، الفتاة العادية ، المانيكان او التلميذة او السكرتيرة او المدرسة اسرار ومواقع لـــو سلط عليها الاديب اضواء لكشف المعجزات ، وكتب المعجزات ٠

وقد فعلت سيمون دي بوفوار ذلك ٠

تناولت حياتها بالتشريح ، غاصت في نفسها ، تعمقت في حياتها تلك الباهتة ، حتى في مللها ، وتثاؤبها ، ولزوجة حياتها اليومية ، في هذا السخف الروتيني الذي توارثته عن عائلتها ، في الآراء التي صدتها ، واصطدمت معها ، ومن هذا النسيج اليومي الرقيق ، كتبـــت اروع الاعترافات ، واروع صفحات الادب ٠

وبهذا بدأت سيمون دي بوفوار ما اسميه ادب الشوارع، او ادب الحياة اليومية لأبسط المواطنين ٠

لقد كانت سيمون دي بوفوار ابنة ذكية سعيدة ، لهـا شقيقة واحدة ، ليس لها اشقاء من الرجال ٠٠ لهـا صديقة واحدة هي « زازا » ٠٠ ابوها محـــام مثقف مستنير ٠ امها متدينة متشبثة بأهداب ما تعتقده الفضيلة ٠ وكانت سيمون دي بوفوار فتاة بسيطة ، بل كانت ماسخة ، ليست انثى تماما ، وليست من هؤلاء الفتيات المسترجلات ٠ وفي الخامسة عشرة وصلت سيمون الى السن الحرجة ، تنشد السعادة كأي فتاة عادية ٠ ولكنها ـ كما تقول ـ لم تجد حولها ســـوى الملل ٠ فاشتد احساسها بالوحدة ٠

ورغم هذا الاحساس المفرط بالوحـــدة ، احست منذ العاشرة بنعمة اخرى في الحياة ، نعمة اسمها الصداقة، متعة المشاركة في شيء ، في هدف ، في حلم ، حتى في الوهم ٠٠
وترسم سيمون دي بوفوار هذه الفترة بروعة دقيقة لا

تستطيعها سوى امرأة حساسة شديدة الحساسية ٠

كانت تسير في الشارع الى جوار امهـــا ، وتصيح في نفسهـا :

ـ هل يمكن ان تستمر الحياة كما تسير الآن ، ملل وراء ملـــل ٠

واكتشفت سيمون دي بوفوار في نفسها ، وفي نفس كل انسان قدرة عبقرية على التمتـع بالحياة ٠٠ واكتشفت نفس المعنى الذي تحدث عنه سارتر فيما بعد حين قال :

ـ علينا ان نعيش عصرنا ، مهما كان عظيما او فظيعا ، لانه في النهاية محسوب علينا ٠

واكتشفت سيمون دي بوفوار ان عليها ان تعيش حياتها، لانها محسوبة عليها ، ولانها ـ في النهاية ـ لن تعيش سواها، واكتشفت مع هذا العطش العجيب الذي ينتاب فتاة الخامسة عشرة للسعادة ، انها تستطيع ان تصنع حياتها بنفسها ، ان تجرب افكارها ، ان تنسج حياتها كما تنسج اي امرأة صداريا من الصوف او شالا من الحرير !

وسن الخامسة عشرة اروع الاعمار ٠
انه عمر البكاء من اجل البكاء ٠
وعمر الحديث اللذيذ في سلام ٠ مجرد الثرثرة البريئة٠
وسن الاسرار الساذجة والهروب من النظرات الحادة ٠

انه سن الخجل والقلـــق والاضطراب ٠٠ واستطاعت سيمون دي بوفوار ان تجعل من سنها ـ هذا ـ حقلا خصبا للافكار ٠

ولكنها كانت وحيدة ٠

عرفت لاول مرة طعم هذه الكلمة ٠٠ طعمها المرير الكريه ٠ « لا احد ارجع اليه ولا احد استند عليه ٠ الدم يسري في عروقي ٠ والانفاس تتردد في صدري ، ولكن ٠٠ كيف تواجه فتاة الخامسة عشرة العالم حين تكتشف وحدتها ٠ »

اخذت سيمون تحلم ٠

فالخيال طائر غريب ٠٠ طوق نجاة للغرقى ٠٠ مظلة للتائهين الحيارى ٠٠

واخذت تحلم في فتاة مثلها تسير في غابة ٠ تضع يدها في يد حبيبها ٠ وتلبس ثوبا من التوال الرقيق ٠ ذراعاها عاريتان ٠ مرسلة الشعر ٠ وبدأت تلاحظ العشاق في الطريق ، فتحس بالوحشة ٠

« يا لها من مشقة ، ان نتقدم في الحياة وحدنا ، منفردين ، لا احد معنا ٠

ويا لها من نعمة ان يضع احد يده على كتفك ٠ يدا معروفة معهودة ٠ لا تكاد تحس بثقلها على كتفك ٠ لا تترك كتفك ٠ ولا تحس بثقلها ٠ ولا تحس بالوحدة بعد ذلك ٠ ويا لها من جملة رائعة : مخلوقان متحدان ٠ »

وتقول سيمون دي بوفوار ، انها كانت تصيح في هذه الاحلام :

ـ ولكن اين هي هذه اليد الخفيفة الملازمة لها ٠

اين هو الرجل ؟

لا يوجد ·

لم يظهر بعد ·

« كل الذي احسه انه سيظهر يوما · ولذلك ، علي ان استعد من الآن للحب · وعليه ان يفرض نفســـه علي · ان يخضعني بذكائه وثقافته وسلطته ·

وسأرتبط برجل يشبهني · قريني يكون اكثر كمالا مني ، ولكنه يشبهني · وسيحفظ لي سيادتي ·· »

ومع هذا الحماس للسعادة ، وهذا الحلم بالالتقاء مع شخص يذيب وحدتها ووحشتها ، تقدمت سيمون دي بوفوار في السن ، فلم تعد تحس احساس المراهقة المعذبة ، بل بدأت تفكر في الحياة · واكتشفت ان دواء الوحدة هو الحب، ودواء الموت ····

مـــاذا ؟

يا له من مرض ليس له علاج ؟!

فالحياة كما يقول سارتر ، ماسخة الطعم ، ونحن نحيا، ولم نستشر في الحياة · وكأننا نتجرع الماء من غير عطش !

ونحن نطمع في المستحيل ، ولا نحصل الا على الواقع ·

ورغم اننا نعلم ذلك تماما ، فاننا نقبل على الحياة كاننا نعيش ابدا ·

ولا نستطيع التنازل عن المطلق مع اننا نعيش العمر الذي ينتهي !

ومع اكتشاف الموت ، يحس الانسان انه جريح بجرح

يتربص به · لا يندمل · لا يتوقف عن النزيف ، حتى يصرعه النزيف · والنزيف نفسه هو الحياة ·

فماذا نفعل ؟

وكما اكتشفت سيمون دي بوفوار ان دواء الملل هو الحب · ودواء الوحدة هو المشاركة ، اكتشفت معينا لا ينضب من المتعة هو العمل ·

المعل · الانطلاق · التحرر · المسؤولية ·

فالحل الوحيد للحياة ليس هو الاستسلام لياسها المرير، او لتعاستها التي تتربص بها · والحل ليس هـــو ان نحيل انفسنا او اجسامنا على الاستيداع ، اي على اللذة المغرقة · بل الحل ، بعد ان ننهض وان نفيق ، وان نصحو ونحن نتجرع الالم ، ونحن نبتلع آلامنا كما نتناول حبـــات الاسبرين ·· واكتشفت سيمون دي بوفوار ان تقبل الموت في شجاعة هو انهاء للموت ، احتجاج عليه · ان نختاره بشجاعة خير من ان نستسلم له كما تستسلم الماشية للسكين ·

ومن هنا كان ايمانها بأن الحياة جديرة بأن تعاش· فكل انسان منا ليس رقما يضاف الى رقم · انه جدير بالحياة · وهو نهاية في حد ذاته · والانسان ليس انسانين · انه انسان واحد · وهو فرد مطلق ــ مع انه نسبي ، لانه يموت ·

ومع هذا اللغز العادي ، ان الانسان يحيا ويموت ، تبدو « روعة » الحياة ومتعتها ، وكرامتها · فالانسان يستطيع ان ينهض مـــن وحشته ومـــن قـــدره المتربص بـــه ، ليعيش حياة فاضلة جديرة بأن تحمل هذا الاسم ·

وبدأت سيمون دي بوفوار تكتشف انها تستطيع ان تكتب

هذه الاحساسات · العادية جدا · والرائعة جدا · وتستطيع ان تصبح اديبة لها كبرياء ، وامرأة ذات سيـادة · فالاديب الملتزم ، كما يقول سارتر ، هو الذي يحسب عليه صمته كما يحسب كلامه · ان صمته يشبه الصمت وسط الحوار المسرحي لا بد ان يكون بميزان · ولا بد ان يكون له وزن · فليس صمته فراغا · وليس كلامه اغراقا فـــي الدعـــاية او اغراقا في التسلية · وقد غرق الادباء بين الدعاية السطحية او التسلية التافهة · ولكنها ستجعل من ادبها حديثا صريحا تقول فيه كلمتها · لان الادب حرية · ولا بد ان تدفع ثمن هذه الحرية ·

ولكن كيف ·· ؟

الطريق الوحيد هو ان تحافظ على سيادتها الفكرية · ان تصنع افكارها بنفسها · ولهذا سخرت سيمون دي بوفوار من حكمة الشعوب ، هذه الحكمة التي يتوارثها الجيل بعد الجيل، فتصبـح هـذه الحكمة المـوروثة ، لا الحكمة المكتسبة ، كسلا فكريا · فهذه الحكمة ـ صنعت ـ لتغرق الناس في اليأس ·

في الامثال الفرنسية عديد من الامثال التي تشبه امثالنا ·· البعيد عن العين بعيد عن القلب · مثل يشجع على الخيانة ـ كما تقول · وما طار طير وارتفع الا كما طار وقع ! مثـل يشجع على اليأس والاستسلام · ولكل جديد لذة ، مثل يشجع على الاوهام ·· الى غير ذلك ·

وهكذا تشن سيمون دي بوفوار حملتها الشديدة على الامثال الموروثة والحكم القديمة · فلا بد للانسان ان يصل الى حكمته بنفسه ، وان يكسبها بعرق جبينه ! ··

ولا بد ان يكسـب الانسان حياتـــه ويعطيهـــا وزنها الحقيقي ··

ولكن كيف ؟ ..

اما بالحب ؟ ..

واما بالعمل ؟ ..

وحتى في الحب ، لا بد ان ينشأ صراع بين الرجل والمرأة .

وتحكي سيمون دي بوفوار قصة هذا الصراع في قصصها . امرأة ورجل . اختلاف . ثم افتراق ، ثم التقاء . ثم شكوك . والشك كما يقولون يحيي الغرام . نعم ! لا بد ان يتعذب الانسان وان يشك ، وان يعض . وان يعود اليها ، ليتأكد انه كان يحبها حقا . وهذا خير من ان يستسلم الانسان للوهم بأنه يحب ..

فالحب بهذا المعنى اكتساب . واثراء مشترك ..

وهي تقول على لسان احد ابطالها :

ـ وكيف يكون الحب على هذه الارض ..

وتجيب على لسان احدى بطلاتها :

بالنضال معا !

فأشرف معنى في هذه الحياة ـ التي تنتهي حتما بالموت ويا للعجب ـ هو الحب والعمل .

وتجد في صفحات سيمون دي بوفوار هذه القداسة التي تعطيها للحب . وهي هنا تتفق تماما مع سارتر في ان العاطفة يمكن ان تكون اعظم شيء في الحياة .

فهو يقول على لسان هيلدا في مسرحية الله والشيطان، وهي تتفق معه تماما ..

تقول هيلدا ، وهي تخاطب جوتيز حبيبها :

ـ « حين تموت ، سأتمدد الى جوارك ، وسأبقى الى الابد ، دون ان اشرب او آكل شيئا · سوف يتحلل جسدك بين ذراعي · وسأحب جثتك ··

فليس هناك حب ، ما لم نحب كل شيء واي شيء ·· »

وتقول سيمون دي بوفوار للمؤلف فرانسيس جنسون انها تتفق تماما مع سارتر في هذه النظرة الى الحب · ولكنها من وجهة نظر المرأة ، تفضل ان يحفظ لها الحب ، قدرا من السيادة ، فلا يصبح الحب حملا ثقيلا ، او استبدادا من الرجل ·

وهي لذلك تعترف للرجل بأن يكون رجلا ، حاميا ، وضخما ، وقويا ، ولكن عليه ايضا ان يحفظ لها كرامتها ، وسيادتها ·

وكأنها تقول كما كانت تقول في صباها الغض :

ـ لا ترفع يدك عن كتفي · ولكن لا تجعل يدك ثقيلة · فاليد الثقيلة ترهق الناس ، حتى ولو كانوا عشاقا متيمين !

وقد كانت سيمون دي بوفوار حسنة الحظ · فقد دخلت باريس لاول مرة بعد الحرب في سيارة جيب ، وكان الاطفال يغنون :

انتهى كل شيء ·· ولن يعود ··

وكان البرد شديدا ينفذ في العروق ، ويقرص العظام·· وكانت سيمون لا تملك غير حذاء له نعل من خشب ، ومعطف

من فراء الارانب ، وكانـــت المواصلات معدومة ، والطـرق مشققة ، والبيوت محطمة ، والفنادق مغلقة ، والفحم نادرا ، والاكل شحيحا ، الا ما يجود به الامريكان ٠٠ !

وقد ظهر وجه التاريخ للفرنسيين جميعا مشوها مخيفا، رغم ذلك فقد مسحت الفرحة كل خـــوف وازاحته ، واصبح البعيد والقريب صديقا ٠ « ان كثيرا من الاصدقاء مات ٠٠ وكثيرا من الذين ماتوا ، اصبحوا بموتهم اصدقاء » ٠٠

ولم تعبأ سيمون دي بوفوار كثيرا بالثياب ، او الاقامة ، او المأكل ٠ لقد كانت تذهب الى بعض المجتمعات ، فكانت ترى بعض نساء المجتمع يلبسن من بيت ازياء « روشاه » ، وكانت تحس انها بهذه الثياب المهلهلة « قليلة الادب » ، ولكنها كانت تدرك ان « البهدلة » التي اصابت باريس افجع من هذه الثياب المهلهلة ، ولقد اكتشفت الطبقة البورجوازية الصغيرة ان كل ما آمنت به كان كذبا واطياف وهم مريض ٠

ورغم روح التفاؤل ـ العليل ـ التي خرجوا بها ، فلقد تمزق كل شيء امام عيونهم ٠ وظهر كل شيء مخيفا مرعبا ، وخاصة وجه التاريخ ٠٠

وحين اعلن جان بول سارتـــر الوجودية في قصصـه وتمثيلياته نزلت به اللعنات والاتهامات من كل جانب ٠

من اليمين واليسار ٠٠

قالوا : ان الوجودية تافهة ، يائسة ، جائعـــة تأكل من ثدييها !

قالوا : انها فلسفة اليأس والهزيمة والشذوذ والقلق ٠

ولكن الشهرة جاءت الى جان بول ســـارتر اسرع مما

توقع ، وممـا توقعت سيمون دي بوفوار ، لقد انتشـر اسمه كأنه مهدي منتظر ، او رسول راحـــة وسلام لتلـك النفوس الممزقة ، وما اكثرها ..

وكان سارتر يحس ان الشهرة ـ في حد ذاتها ـ ، وبهذه الصورة .. فضيحة !! ..

« فهو يعرف كيف ظل بودلير ، الشاعر الرجيم ، يكتب ولا يقرأه غير عشرات من صحابه ونقاده ، وكيف ظل فرانز كافكا يكتب ولا يطبع ، ولا يطمع في الخلود او الذيوع ، وكيف كتب ستندال العبقري صاحب قصة « الاحمر والاسود » لنفسه وبعض المقربين » ...

ولكن الشهرة حين تجيء لا تستأذن احدا ..

وتفسر سيمون دي بوفوار ظاهرة رواج الوجودية بتعليل غريب ، مليء بالتواضع او السخرية ! ..

تقول : ان باريس خرجت من الحرب منهكة القوى ، لا تملك شيئا تصدره للعالم .. سوى الموضة والادب ..

وسرعان ما اخذت فرنسا تضخـــم رصيدها في الادب والموضة حتى تعوض كل خسائرها . لقد تحطم الاقتصاد ، وانهارت السمعة ، واهينت الكرامة ، ولم يبق لفرنسا سوى هذا الرصيد !

بقية من ذوق رفيع ، وشعلة من ذكاء وفكر .

وقد كان سارتر محقا حين قال : « ان الثقافة هي الشيء الوحيد الذي يبقى للانسان حين يفقد كل شيء » ..

ولكن سارتر ، كما تحكـــي سيمون دي بوفوار ، وقد

عرفته منـذ اكثـر من ثلاثين عاما ، كان يفضل الخلود على الذيوع ، وكان كثير الاخلاص للمعاني ٠

وكان شديد الاخلاص لعاطفة ـ المعارضة ـ التي ورثها منذ ايام الشباب ، وكان مستاء قلقا ، وكان يحتقر الاحتيال ، وكان اقرب الى الزهد ٠٠ ولكنه لم يرض بأن يصبـح مفكرا متأملا ٠

ولذلك كان سارتر يميل فوق تكريس حياته للادب ، الى العمل ٠٠ والعمل السياسي بالـذات واثناء الحـرب ، انشأ سارتر فرقة للمقاومة ، سماهـا « الاشتراكية والحرية » ٠ وصادق كثيرا من رجال المقاومة ، فحظي بسمعة طيبة بينهم ، فيما عدا بعض المنشورات التي ظهرت في جنـوب فرنسا ، تضعه في القائمة السوداء ، مع الكتاب المتعاونين مع الالمان، وحين انتهت الحرب ظهرت السماحة بين اليمين واليسار ٠٠ والصداقـة بين مختلف التيارات والاتجاهات ! لا فـرق بين المتحمسين للكاثوليكيين ، او المؤمنين بالماركسية ، او الباحثين عن فلسفة للوجود وتفسير الحياة ٠٠

وبدأت باريس تسترد عافيتها ببطء ٠٠

المعارض القديمة تعود ، والاعمال الفنية المختلفة ايام الاحتلال تظهر ٠ ووافد جـديد الـى باريس مـن الادباء الامريكيين ، وخاصة ادباء الزنوج ، يقيمون صباح مساء في مقاهي « الفلور » ، و « الدي ماجو » ٠٠ وكأنهـم اختاروا باريس منفى وملاذا وفي خلال المقاومة ، كانت بعض المحلات السرية ، قد تخصصت في السياسة او الشعر ، والفلسفة ، ومنها مجلة « شعر ٤٤ » ومجلة « اسبري » التـي يحررها جونييه صاحب مدرسة التوفيق بين الماركسية والمسيحية ٠٠ و « تومبا » التي يحررها البير كامو ٠ وكان جان بول سارتر

يرضى عن هذه المجلات ، ولكنه لا يرضى عنها تماما ٠

وكان يقول انها لا تعبر تماما عـــن روح العصر بعد الحرب ٠

وبدأوا يفكرون في اصدار مجلة شهرية ادبية ٠

واخذوا يبحثون عن اسم للمجلة ٠ فاقتـــرح ميشيـل ليريس ، احد الشعراء ، اسما غريبا ، لا يخلو من وقاحة وتهجم على القراء ٠ وكان ليريس في ماضيه سورياليا يلعب بهذه الوقاحة المتعمدة ! ورفضت اللجنة هذا الاسم ، واستقرت على اسم « العصور الحديثة » ، استلهاما مـــن فيلم « العصـور الحديثة » الذي الفه ومثله واخرجه شارلي شابلن ٠

وكانت الفكرة فكرة سارتر ٠

وتقدمت الاعوام ، وبدأ اليسار يصطدم بسارتر ٠٠ وبدأ اليمين يستاء من سارتر ، لانه يذكرهم بخطايا الهزيمة والخيانة وفجيعة المقاومة ، وبدأ هذا التفاؤل الاول يهتز ٠٠٠ وبدأت سيمون دي بوفوار لا تخفي حقيقتها بأندريه مالرو اعظم قصاصي فرنسا قبل سارتر ، لانه « يتصور نفسه انـــه جوته وديستويفسكي معا » ٠

وكثيرا ما كانا يتشاجران ، لانـــه يستخف بكل مـــا يستحدثه جان بول سارتر ، والبير كامو ٠

حتى لقد سئل اندريه مالرو ذات يـــوم فـــي احدى الندوات :

ــ ما رأيك في ادب البير كامو ٠

فكاد ينفجر في السائلين صائحا :

ـ بالله عليكم · شيئا من الجدية · اننـــا لا نتكلم في مقهى او ناد من نوادي الوجودية ·

وفي البداية ارتبط سارتر بالبير كامو ، وكانا يعتقدان ان صداقة وطيدة لا تفرقها الايام تربطهما معا ·

وأخذ البير كامو يحكي لسيمون دي بوفوار ، يصارحها بمتاعبه الخاصة · ويقرأ لها صفحـات من يومياته · وتقـول سيمون دي بوفوار ان كـــامو كان متوقـد الحماس · وكان ساخرا ، تقطر سخريته المرارة · وكان مندفعا · وكان ساخنا · ولكن زملاءه في الجريدة كانوا ينعون عليه انه يتعالى عليهم · وكان يحس بمأساة غريبة · لأن شهرته وصورته عند الجماهير لا تمثلان حقيقة ·

لقد كانت له مأساة ما يخفيها عن الناس ·

لعلها ذلك الحماس لان يصبـــح « كـل شيء » في وقت واحد ·

وتقول سيمون دي بوفوار ، أن البير كامو كان شـديد الحماس ، الى درجة أنه كان يجـلس في الثانية صباحا عـلى الرصيف ، والجليد يغطي كل شبر من الارض · ثم يتحدث عن الحب ـ مثلا ـ بعاطفة مليئة بالشجو والشجن · ويظل يقلب هذا السؤال :

ـ هل يستمر الحب · وهل يحـــرق الحـب من أحب ! وكيف يدوم متوقدا ؟

ويبدو أن سيمون دي بوفوار درست شخصيـة كامو في قصتها (كل الرجال يموتون) ·

وقد استوحت فيها ما قاله الشاعر جورج باتاي : «كيف يمكن أن نرضى بألا نكون كل شيء » ٠

وبطلتها فرانسواز ، يؤرقها سؤال وحيد :

ـ كيف تصبح في حياتها كل شيء !

ولم تصب هذه القصة نجاحا كبيرا ٠ وتقول سيمون دي بوفوار ، ان الفشل في الادب يشبه حوادث السيارات ٠

لو حدث لك حادثة سيارة فالناس ينصحونك بأن تركب سيارة على الفور ٠ حتى لا تتعقد وتخشى بعد ذلك ركوب السيارات طوال حياتك ٠

وكذلك الفشل في الكتابة ٠

قد يصيبك بالعقدة التي لا نجاة منها الا بالكتابة ثانية على الفور ٠

وقد فعلت سيمون دي بوفوار ذلك فكتبت : « دمـاء الآخرين » ولكن كتابها « الجنس الاخر » هو الذي اصاب نجاحا مذهلا ٠ وألقاها بين احضان الشهرة ٠٠٠ وفي هذا الكتاب تكشف سيمون دي بوفوار عن رأيها في حياة المرأة وتقدم وجهة نظر جديدة ، تحررية ، لان الرجل هو الذي يصنع القوانين ، ويحكم المجتمع ، وليس معنى ذلك انها لا تؤمن بوجود فوارق بين الرجل والمرأة ، ولكنها تؤمن أن معظم الفوارق ترجع الى الثقافة والمجتمع واملاء الرجل وكبريائه المزيفة ٠

وقد فرقع هذا الكتاب في فرنسا ، ثم انتشر في العالم، ونعى عليها معظم الرجال الفرنسيين انها تسخف وتسخر من

الرجل الفرنسي وتتهمه بالاهتمـــام بالحب والحديث عنـــه والتبجح بأنه : « فن فرنسي » لان الرجل الفرنسي لم يعد كمـا كان ٠

لقد أصبح الرجل الايطالي هو الذكر الحقيقي في اوروبا، أما الفرنسي فيملأ حياته بالحديث عن الحب ، ولا يحب !

والكتاب مليء بالملاحظات الذكية ، والاتهامات الجريئة، والمصارحات التي أقلقت البير كامو ، فـلم يخف عنها رأيه في « وقاحتها » ٠

وجاء وافد جديد الى بـــاريس هـــو القصاص « آرثر كوستلر » صاحب قصة « الظلام في الظهيرة » ٠ وكانكوستلر معجبا بزوجته الحسناء التي تنزل من عائلة عريقة أو تتمتـع بجمال غير مألوف ٠

وكان كوستلر شديد الكراهيـــة لروسيا الى درجـــة الحساسية المرضية ٠ وقد ألف كتابه : « اليوجي والقوميسار » وكتابه : الظلام في الظهيرة ، وفيهما غمز جارح لروسيا ، لم تطق عليه سيمون دي بوفوار صبرا ٠

وقد كتب « ميرلو بونتي » في مجلة « العصور الحديثة » مقالا طويلا يرد فيه على « اليوجي والقـــوميسار » بعنـــوان « اليوجي والبروليتاريا » ٠ واتقدت معركة حامية دخل فيهـا أغلب المثقفين وتبادلوا الاتهامات الفظيعة ، ويبدو أن البيـــر كامو كان لا يرضى باتجاه سارتر الى التحالف مع اليسار ٠

وبدأت العلاقة تهتز ، حتى جاء كوستلر، فأشعل الخصام نارا ، وتحكي سيمون دي بوفوار كيف جلســـا مـــع ســـارتر وزوجته ، وأخذوا يتناقشون حتى الرابعة صباحا ٠٠ والشقاق يظهر بينهم حتى أصبح لا أمل في الوفاق ٠

وفي الفجر جرا أذيالهما ومشيا على رصيف نهر السين، يكادان يتهاويان من التعب والتشتت ٠٠ ولم تملك سيمون دي بوفوار نفسها فدار بينهما حديث عـــن قاع نهر السين ! ثم انخرطت سيمون في البكاء ٠٠٠ ورأت بيـن دموعها دمعتيـن مكتومتين تنديان وجه سارتر في الفجر ٠

لقد فقدا صديقا ٠

وأنهت مع ذلك الفجر تلك الفترة من حياتهما ، حين كانا يؤمنان بأن من قاتل معهما صديق وكل من اختفى ومات، أصبح بموته صديقا ٠٠

« الانسان يتعود على كل شيء .. حتى على الطاعون والارهاب والحرب ... »

« اهرنبورج »

الناس يتخيّرون

عصرنا .. عصر الحروب والثورات . وليس أحق من ايليا اهرنبورج ـ بين ادباء كثيرين بلقب كاتب العصر . لأنه كاتب الثورة والحرب عن جدارة .

فقد كان أهرنبورج نسخة روسية من صديقيه مالرو الفرنسي وهيمنجواي الامريكي ، وقد صور مالرو الحرب والثورة في رواياته الفرنسية ، كما صورهما هيمنجواي كذلك في رواياته الامريكية . وليس صدفة أن يكون الكتاب الثلاثة ـ الروسي والفرنسي والامريكي ـ أصدقاء عاشوا خلال الحرب الاهلية الاسبانية وربطتهم زمالة فكرية ونضالية طويلة .

وكان أهرنبورج نسخة روسيا من الكاتبين الفرنسي والامريكي . بل ترجمة روسية لروح العصر . لانه عاش ثورة روسيا ، وعاصر الحرب الاهلية الاسبانية ، وشهد تكوين الجبهة الشعبية اليسارية في فرنسا ، وسجل سقوط باريس تحت دبابات النازية . وشهد عصر ستالين كاملا ، وشهد انهيار ستالين والستالينية ، وعاصر خروشوف وتصادم معه. وكان اهرنبورج في كل هذه الحياة العاصفة صحفيا نشيطا يسجل أخطر أحداث العصر ، ولكنه كان أيضا شاعرا وأديبا. ولذلك كان لونا جديدا على الادب الروسي لانه يحمل أزمة الضمير الموزع بين القيم الاوربية والقيم السلافية .. وهو يجيد الكتابة والخطابة بالفرنسية ، وقد زامل وصادق مالرو واندريه جيد وهيمنجواي وبيكاسو ، كما زامل وصادق ماياكوفسكي ويسينين وبلوك وتولستوي الصغير . وأفاد الفكر الاوربي والروسي معا لانه نقل روحا أوربية جديدة الى روسيا ، ونقل روحا روسية جديدة الى أوربا . وكان سفيرا « أدبيا » متنقلا للحضارتين وتستطيع ان تلمس ذلك في كتبه، فتجد النكهة الاوربية والروح السلافية في مزيج ممتع ، فهو أقرب الى الاسلوب التحليلي الفرنسي ، والشاعرية السلافية أيضا .

وقد اختلف النقاد حول أهرنبورج :

ـ هل هو صحفي أو روائي ؟

وقال كثيرون :

ـ ان أغلب رواياته أقرب الى التحقيقات الصحفية المليئة بالوصف السريع والحركة المتنقلة · ولم يخف أهرنبورج حيرته في نفسه ·

وكتب يقول على لسان أشهر الصحفيين السوفيت فيما بعد الثورة ، وكان يزامله في اثناء الحرب الاهلية الاسبانية ·

ـ كثيرا ما قال لي هذا الصحفي الذائع الصيت أنه لا يخفي حسده للكتاب الروائيين الذين يكتبون الروايات عن الحرب الاهلية الاسبانية ·

وكان الصحفي يقول لي :

ـ ماذا سيبقى من بعدي ؟

مجرد تحقيقات صحفية تافهة · مجرد أوهام زائلة !

ويقول أهرنبورج أن صديقه الصحفي الشهير لم يكن يخفي حسده لهيمنجواي الذي كان يكتب في ذلك الحين قصته الرائعة عن الحرب الاهلية في أسبانيا ·

ويقول أنه كان أيضا يحس بالمرارة · فلم يكن هذا الاحساس غريبا عنه ، وهو الذي أعطى كثيرا من الجهد والسنوات من عمره للصحافة ·

ورغم ذلك ، فقد أصاب أهرنبورج شهرته في داخل

روسيا وخارجها كقصاص رائع سجل أحداث سقوط باريس ، وأحداث الثورة الروسية ، وأحداث الحرب الاسبانية ، ولا ترجع هذه الشهرة الى موهبته وشاعريته وصدقه ، بل ترجع الى شخصيته وأخلاقياته أيضا ٠

فقد كان أهرنبورج كاتبا أخلاقيا ٠

وفي أثناء الثورات والحروب ، يحتاج القارىء الى الكاتب الاخلاقي بالذات ، المتمسك بمبادىء انسانية وثورية ، لا يحيد عنها ٠

ودليل أخلاقيته انه كان لا يخفي ما يؤمن به انه الحق، وقد أدى ذلك به الى خوض معارك عديدة مع النقاد الرسميين للثورة ٠ وقد كان من أوائل المدافعين عن مایاكوفسكي شاعر الثورة الذي انتحر ، ومن المدافعين عن قراءة جيمس جويس وفرانز كافكا ، وكان النقاد الرسميون يكيلون لهما الاتهامات المتجمدة المتحجرة ٠ وكان يقول عن كافكا انه اول من تنبأ بأزمة النازية في أوربا وكان النقاد يتبرأون من كافكا لانه أديب شديد التشاؤم ، بدعوى ان الاشتراكية دعوة الى التفاؤل والتقدم ! وكان اهرنبورج كذلك من المدافعين القلائل عن باسترناك ، حتى حين عصفت به عاصفة الاستنكار الرسمية ، وكان من اوائل من تنبأوا بشهرة ايفتوشنكو وغيره من الشعراء الشبان المجددين ٠ وهو صاحب النبوءة الكبرى بأفول نجم ستالين ، في قصته « ذوبان الجليد » ، حتى أصبح اسم تلك الرواية رمزا لمرحلة تاريخية في تاريخ روسيا السياسي والثقافي ٠

وأهرنبورج ، لا يخفي أنه أمضى عامين بعد الثورة، وهو في أزمة ثقة ، لا هو يثق بالثورة ، ولا الثورة تثق به ٠ ويحلل الكاتب ذلك بأنه كان يؤمن بالقيم الانسانية التي بشر بها القرن

التاسع عشر · ويقصد بذلك الليبرالية والافكار التحررية والديموقراطية الكلاسيكية ·

ولم تمنعه هذه الازمة من تأييد الثورة ، حتى أنه كتب أعظم كتبه ، وأكثرها عددا وحماسا في تأييد الثورة ثم أصبح كاتب « الوطنية السوفيتية » أثناء الاحتلال النازي لروسيا، وفي مقالاته النارية روح وطنية سلافية ممزوجة بروح العصر، ملتهبة أخاذة ، تلفحها روح كلاسيكية عميقة ، كتلك التي تهب في أعماق الوطني الصادق اذا داس العدو تراب وطنه ·

يقول أهرنبورج في عام ١٩٤١ بعنوان « الامتحان » :

ـ « اننا لا نستطيع ان نرفع رؤوسنا من الخريطة · ان نرى اوكرانيا قد احتلها العدو · وان نرى الالمان يقتربون من موسكو ويقتربون من روستوف · لا نستطيع أن نخفي أن هذه الكلمات القليلة العدد تعبر عن عالم هائل من التعاسة ، عن مئات من المدن المهدمة، وملايين من الذين سقطوا في العبودية· ولا بد أن ننقذ روسيا · ولسوف ننقذها » ·

ومن أشهر مقالات أهرنبورج الصحفية تلك السلسلة الساخرة التى كتبها عن عقلية العدو ، بعنوان « فريتز »· ويحلل أهرنبورج عقلية « فريتز » النازي الالماني · تحت اسم « فريتز » الفيلسوف · و « فريتز » البيولوجي و « فريتز » النرجسي ··

وفي ليلة دخول الجيش السوفيتي الى برلين ، يكتب أهرنبورج مقالا عنوانه « ليلة الاقتحام » ·

ـ « نريد أن نذهب الى عش الافاعي · لنذهب الى المانيا حاملين السيف · حتى يسكت السيف الى الابد · نريد أن نذهب اليهم ، حتى لا يجيئوا الينا من جديد · سنذهب اليهم،

تصحبنا ظلال المعذبين الذين يصرخون فينا من بين جراحهم تذكروا شيئا واحدا :

العدالة ٠٠ »

وقد كتب أهرنبورج روايات عديدة منها روايتان هامتان، هما « سقوط باريس » ، و « ذوبان الجليد » وقد ترجمتا الى العربية ، وتعتبر القصتان من أشهر أعماله ٠ ولكن النقاد يعتقدون ان من بين أعماله الاولى عملا جديرا بالقراءة والاهتمام ، مع انه لم يصب غير قدر متواضع من الذيوع ٠

فقد كتب اولى رواياته عام ١٩٢٣ ، وهو لا يزال في الثلاثين ، وتكشف هذه الرواية عن سخرية لاذعة تؤهله لان يكون جوجول جديدا ٠ والرواية اسمها « مغامرات جوليو جورنيتو ومغامرات أتباعه » ٠

والرواية تحكي مغامرات أشبه بمغامرات دون كيشوت، وبطلها جورنيتو وهو مكسيكي مثقف ثوري ٠ لكنه يختلف عن الثوريين المعروفين ، ويختلف معهم كذلك ٠

ومن هنا كانت السخرية والفكاهة انه يحلم ان تكون ثورته أكبر ثورة في العالم ٠ وهو يحلم بأن يهدم أسس المدنية المعاصرة ، وأن يغير الاخلاق والعادات والقيم ٠

وهو ككل ثوري يبحث عن أتباع من مختلف الملل والنحل والنظم والامزجه ٠

فيذهب الى أهرنبورج نفسه ، ليقنعه بمذهبه ، فينخرط أهرنبورج في صفوف أتباعه، ويكون أول الاتباع الذين يصبحون سبعة ، انتقاهم المؤلف من القارات المختلفة والحضارات المتضاربة ٠

فواحد منهم شاعر ضئيل الموهبة ، يجـــلس على المقهى يتندر ويتفلسف ويحاكم الآخرين ثم يبحث عن صديق يدفع عنه الحساب ٠

والتابع الثاني، موسيقي امريكي فاحش الثراء٠ والثالث سنغالي أسود ، والرابع عدمي من أنصار العدمية « ومن غير العدمي يمثل الروح الروسية ! » ، والخامس ايطالي عاطل ، والسادس فرنسي بورجوازي يطيب له انتقـــاء الذ الاطعمـــة وأعرق الانبذة ، والسابع الماني يؤمن بالنظام ، ويعجب بكارل ماركس والامبراطور غليوم الثاني في نفس الوقت ٠ وهو فوق ذلك خبير في المطاعم العامة ٠

ويتقابل السبعة ويحاولون الترويج لمذهبهم ، فاذا قبض عليهم في فرنسا تولى الفرنسي التوسط لهم لدى السلطات، أو ترتيب وسائل الهرب ، واذا قبض عليهم في المانيا تولى الالماني تلك المهمة ، وهكذا تدور أحداث الرواية الساخرة في مغامرات فكاهية مليئة بالواقعية المرة ، حتى لا تدري أيسخر صاحبنـــا من النظم العتيقة أم من الثورات العنيفة ، ولكنك تخـــرج من الرواية ، فتؤمن بضرورة التغيير على أي حال ٠

ويروي اهرنبورج في الجزء الرابع والاخير من ذكرياته بعنوان : « الليل يهبط » تلك الفترة الخطيرة في حياة أوربا ما بين عام ١٩٣٣ أي بعد نجاح هتلر ، حتى وصـــول هتلر الى أبواب موسكو ، وقد عاش اهرنبورج أغـــلب هذا الوقت في باريس مراسلا لصحيفة ازفستيا ٠

وفي هذه الفترة الحرجة من تاريخ أوربا ، كانت مقدمات الحرب العالمية الثانية تظهر شبه مؤكدة للمثقفين اليساريين٠ على الرغم من معاهدات عدم الاعتداء التي عقدها ستالين مع هتلر ٠

وكانت باريس هي المسرح الذي تتصارع فيه القيادات اليمينية واليسارية على أعنف صورة ·

« نظرت الى بعض الصور القديمة ، فوجدت ان وزني قد زاد بصورة ضخمة · لقد تغيرت · ولكنني لم أصبح ساذجا · وكثيرا ما كنت أحلم بالمعارك · ولم تكن كل المعارك وهمية تصارع طواحين الهواء · كنت أصارع الجواسيس والشاعر بول فاليري ، وأعارض السوريالية ، وكنت أرسل المقالات النارية الى ازفستيا ، وكنت ما زلت أتمسك بهذا الشاعر الشاب الذي كنته في قديم الزمان ، ولم أحس انني لا أجيد في الحقيقة سوى النثر ، وان عمري قد أصبح الثانية والاربعين »

وقد أثارت الوحشية النازية في النفوس روحا غريبة من طلب الثأر ·

جلست في مطعم « أزهار الليلا » وهو مطعم في نهايه شارع المرصد الفلكي بباريس ، وكان يتردد عليه هيمنجواي ، ومن قبله كان لينين قد اختاره مكانا مفضلا ·

وقال لي الكونت كارولي ، أول رئيس وزارة ثوري للمجر ، وكان رجلا طيب القلب للغاية :

ـ انني أحلم بأن أصحو ذات صباح بهيج ، فأخرج الى الفرائدة ، واتناول قهوتي ، وأجد فوق كل شجرة نازيا مشنوقا ··!

وكنت أسمعه صامتا ·

وفي أحد الاجتماعات العامة الباريسية ، لمعارضة الفاشية ، ذهبت لاسمع اندريه جيد واندريه مالرو ، وفايان كوتوريه · وكان اندريه جيد يشبه قسيسا من قساوسة الكاتب

المسرحي ابسن · وكان يفرط في شرب الماء · وكان العمال الذين يحضرون الاجتماع لا يقرأون من كتبه شيئا ، ولكنهم يعلمون أنه كاتب شهير وأديب كبير · وكان مالرو هائج النظرات ، يقول صارخا وسط عاصفة من التصفيق :

ـ لو اندلعت الحرب فسنقف في صف روسيا !

وقد يبدو غريبا الآن ، كما يقول اهرنبورج في مذكراته، ان الناس يتغيرون · وان الزمن يغيرهم ببساطة !

ففي عام ١٩٣٣ ، كان الشاعر بول ايلوار نصير السوريالية · ولم يكن احد يستطيع ان يتنبأ حينئذ بأنه سيصبح شاعر المقاومة بعد احتلال فرنسا !

وهذا مالرو يصبح وزيرا ·

وهذا جوليو كوري ، العالم الذري الفرنسي ، الذي كان اصدقاؤه يتهمونه بأنه لا يدرك خطورة الفاشية تماما ، يصبح عدو الفاشية « رقم ١ » في فرنسا وأوروبا والعالم !

ويقول اهرنبورج :

ـ ليس من عادتي أن أسود صفحات أصدقائي القدامى · فقد عرفت مالرو ، وزاملته ، وصادقته أكثر من ثمانية أعوام ·

وقد تعرف به في الحرب الاسبانية · وكان مالرو ـ في الثلاثينات ـ يعد أشهر وأخطر قصاص فرنسي بل وأوربي · وكان مالرو يظهر دائما في أوساط اليساريين واجتماعاتهم وقراراتهم · وكان اليساريون في ذلك الوقت يعدون المؤتمرات « للدفاع عن الثقافة » ، و « الدفاع عن السلام » لانهم كانوا يحسون بأن الحرب قادمة ، وان النازية تخفي الحرب تحت عباءتها ·

ويكتب اهرنبورج في مذكراته هذه السطور :

« طالما تساءلت ما سر أحزان فرنسا ؟ ان حزنها يكشف جمالها · فعلى شواطىء المحيط ينسج الصيادون شباكهم الناعمة الزرقاء · والابقار السوداء تغوص في الحشائش الخضراء كالطفولة · والمنازل البيضاء الصغيرة التي يسكنها الفلاحون · ولكن ما أقصر العمر ، هذه هي أغنية شاب خجول أسمعها من نافذتي · الشاب أضخم من مقاس بدلته · لقد أتى هذا الشاب متأخرا الى هذه الدنيا · فكل شيء قد تم · وكل الاماكن احتلت والشيوخ استولوا على المقاعد كلها · وكل الروايات قد كتبت · ولا يستطيع هذا الشاب ، أن يغني غير اغنية واحدة :

ـ ما أقصر العمر !··

ويرسم اهرنبورج صورة صادقة للحرب الاهلية · بلا دموع ، ولا آهات · ولا أناشيد · فيقول : « الانسان يتعود على كل شيء · حتى على الطاعون · والارهاب · والحرب· وقد تعود سكان مدريد على القنابل والبرد والجوع ، وتعودوا أن الفاشست على مقربة من كازا ولكامبا ·· أي على بعد كيلومترين من الاحياء الشعبية الآهلة بالسكان ·

وكانت الطرق السبعة التي توصل الى مدريد قد سقطت في يد الاعداء · ولم يبق غير طريق واحد مفتوح بين مدريد وفالنس ·

وكنت اسكن في فندق بالاس الذي تحول فيما بعد الى مستشفى ·

ولم تكن البيوت تعرف الدفء وكان الطعام نادرا · وتعودت أن أعود الى أحلامي القديمة ـ وأنا نائم ـ كما كنت

أحلم في موسكو في عام ١٩٢٠ بعد الثورة ٠

قطعة لحم تلوح لي في الحلم !

وجاء صديق يصيح :

ـ هيمنجواي وصل المدينة ٠

نسيت قطعة الجامبون التي أنفقت اسبوعا للحصـــول عليها ٠ وذهبت الى لقائه ٠

ويقول اهرنبورج ان هيمنجواي علمـه الكثير في الفن والحياة ٠

وكان أحد الاصدقاء قد قرأ له رواية لمـــؤلف مجهـول ـ حينذاك ـ اسمها « الشمس تشرق أيضا » ٠ وقـال له : ان هذه الرواية ستكشف لك اعماق اسبانيا ٠

وقرأ اهرنبورج كتاب هيمنجواي ٠ ثم اشترى كتـــابه « وداعا للسلاح » « وكثيرا ما كنت أنظر الى هذا الرجل القوي، الهادىء ، وهو يجلس الى مائدته يجـرع الويسكي ٠ وسألته ماذا يفعل في مدريد ٠ وقال انه يراسل احدى وكالات الانباء ٠ وكان هيمنجواي يتحدث بالاسبانية وكنت أحدثه بالفرنسية »٠

وشكا هيمنجواي أن النقاد يعيبون عليه أنه يكتب رواياته بأسلوب البرقيات الصحفية ٠

فضحك اهرنبورج ، وقال :

ـ انهم ينعون علي نفس العيب ٠

وقال هيمنجواي :

ـ خسارة انك لا تحب الويســـكي مثلي · ان الويسكي وقود الرجال ·

وكان هيمنجواي يسكن في فنـــدق بالقرب من مركـز التلغراف · ليس بعيدا عن مرمى نيران العدو · وكان بالطبع هو النزيل الوحيد في الفندق !·

وكان هيمنجواي يستطيع أن يعيش مرفها في هدوء في بيته الصغير الذي يملكه في فلوريدا · ولكنه فضل الحياة في الخطر والجوع والحرب ·

ويقول اهرنبورج : لو ان غريبا رأى هيمنجواي لظنـه بوهيميا رومانتيكيا · شارب خمر · ماجنا ، قناص وحوش· أو صياد حيتان · والحق ان هيمنجواي كان يعمل بلا كلـل· وكان هيمنجواي يقول له لا بد من العمـــل حتى لا تستســلم للملل · « ولو لاحت لي صفحة مما كتبته باهتة · أمزقها على الفور وأعيد كتابتها خمس مرات أو عشرا » ·

وذات يوم ، قال له هيمنجواي :

ـ ان الاشكال تتطور بلا شك ، ولكن الموضوعات ·· !

ان موضوعات اي كاتب في العالم لا تتغير · وتستطيع ان تعدها على اصابع يدك · انها الحب والموت والعمل والقتال· وكل شيء يدخل تحت هذه المواضيـــع · الحرب طبعا · حتى البحر كذلك ينطوي تحت هذه الموضوعات ·· »

وفي أحد المقاهي التي نجت بأعجوبة بين منزلين تهدمـا تماما ، أخذ هيمنجواي يقول له :

ان الكاتب لا يستطيع أن يكتب كل شيء · ولو أراد ذلك،

لاضطر الى التلفيق والسطحية · ولذلك فعليه أن يختار الدقائق الصغيرة، التي تركز وتلخص الافكار العامة والهامة·

وكان هيمنجواي شديد التمسك بالحياة · يتحدث ساعات طويلة عن سمكة ضخمة نادرة تعبر فلوريدا ، أو عن مصارعة ثيران · وبينما كان يحدثه عن الصيد ، توقف نجاة ليقول :

ـ « على أي حال فالحياة لها مغزى ·· ومغزاها هو كرامة الانسان » ·

ليلة امس ، قتل شاب امريكي بالقرب من المدينة الجامعية · كان قد جاء الى فندقي مرتين · وتحدثنا في كل شيء واي شيء · كنت اود ان اقدمه اليك · كانت له جملة مفضلة « ليس اقذر من الحرب · ولكنني في الحرب افهم لماذا ولدت · فلا بد من اقصاء الفاشست عن مدريد » ·

وبعد صمت · قال هيمنجواي ، لصديقه اهرنبورج :

ـ اترى كيف تتطور الامور ؟

تتمنى ان تقول وداعا للسلاح ، ولكنك لا تملك الا ان تقبض على السلاح ··· لتقاتل ··

نعم ! ·

فقد صدق هيمنجواي ، وصدق اهرنبورج ·

ليس اقذر وافظع من الحرب ، لكنها قد تكون السبيل الوحيد ليعرف الانسان لماذا ولد ولماذا لا بد للحياة من الكرامة ·

ليس الياس هو الذي
دفعني الـى قتل القيصر
.. ولكنه حب الحياة .

كاميابيف ،
شخصية في
مسرحية «العادلون»
لالبير كامو

العدل عنـدي فوق
الحياة . والمبـدأ فوق
الفـرد . فـوق القتيل
والقاتل . فوق القيصر
والثائر .

استيبان ،
شخصية ثانية في
نفس المسرحية

العدميون

انحبست

انفاسنا عندما قررت الجماعة اطلاق النار على القيصر ٠

كنا بين الفصلين الثاني والثالث من مسرحية : « العادلون » التي كتبها البير كامو ، وعرضت في مسرح ايبرتو بباريس ٠

كنا نتساءل :

ـ هل ينجح كالياييف في مهمته ؟

وكالياييف هو اسم البطل في الرواية التمثيلية وفي الحقيقة ايضا ٠٠

لقد تنبه البير كامو الى تلك الشخصيات الثائرة التي ملأت تاريخ روسيا في منتصف القرن التاسع عشر ، والتقط منها شخصية كالياييف ، فصورها في روايته « العادلون » ، واحتفظ لها بنفس الاسم بعد ان مر ما يقرب من ثمانين عاما بين الحادثة والحقيقة والرواية التمثيلية ٠

وكالياييف يسمى في الشلة بالشاعر ٠

وهو شاب له جبهة عالية ، وعينان لامعتان : اغلب الظن انهما كانتا تلمعان بشدة فيما مضى ، ثم احاطت بهما خيوط دقيقة رسمها العناء الشديد وهموم التفكير واستبداد الفكرة الثابتة ٠٠

يقول كالياييف لصحابه انه انضم اليهم لقتل القيصر « لا لانني مللت الحياة ٠٠ ليس اليأس هو الذي دفعني اليكم ٠٠ بل انه حب الحياة » ٠

وقد رأينا كلياييف يتناقش وينتظر ويترقف ويخطو ٠٠ كل ذلك بسرعة ٠٠ وكأنه لا يعرف مكان خطواته ٠٠٠ ولكنه كلما احس بدوار في رأسه وضع يده دائما على قلبه ٠٠ الذي يقوده ٠

يقوده الى اين ؟

الى المقصلة ٠٠ ام الى العدل ؟!

انه يكره الظلم ، ويرى الحياة معه مستحيلة ٠

ولكنه يصيح فجأة في رفاقه :

ـ هل انا قاتل الغ في الدماء ٠٠ ام انا وطنـــي احقق مثلي الاعلى ؟

واذا بالجواب يسدده في صدر صديقه وزعيمه استيبان٠

الزعيم يقول : انه لا وقت لهم لمثل هـــذه التفاصيل : للبحث فيما اذا كان زميلهم قاتلا ووطنيا ٠٠ ام انه قاتل فقط٠

ثم يقول له :

ان العدل عنده فوق الحياة ، والمبدأ فوق الفرد : فوق القتيل والقاتل ٠٠ فوق القيصر والثائر ٠

ويخرج كالياييف لينتظر عربة القيصر عندما تمر ٠٠

وتطل عليه حفنة من رفاقه ينتظرون اللحظة الفاصلة٠٠ وصوت الانفجار ٠

وكنا معهم ننتظر ، والستارة مسدلة بين الفصلين الثاني

والثالث من المسرحية ، هذه اللحظة الحرجة ، ونتساءل :

ـ هل سيقتله ؟

ورفع الستار ، وعاد الينا كالياييف فاشلا ٠

خانته ذراعه ، فلم يستطع تسديد رصاصاته : فقد تحققت مخاوفه ، ووجد حفيدي القيصر الصغيرين يركبان في نفس العربة التي تقل عدوه ٠٠٠

فيا للحظ !

ويلقى كالياييف من رفاقه ثورة وغضبا ، ولا احد يفهم مأساته غير حبيبته دورا التي تدرك تلك الطاحونة التي تطحن جسده وروحه ٠٠٠

انها فتاة احبت العدل ، واحبت لتفهم ٠ واحبت الثورة لانها هويت كالياييف : احبت العدل عن طريق الرجل ٠

ولكن دورا لها مأساة ايضا ٠٠٠

فقد دخلت الثورة من باب الحب ٠ ولكنها اكتشفت ان غرام الشباب يحني الهامات ، ويحرف النظر ، ويذيب الارادة٠ والذين يتفرغون للمثل الاعلى يمتصهم ٠

ينظرون الى المستقبل ويشقون حجابه ويرفعون رؤوسهم وتصبح قلوبهم في عيونهم التي لا يرتعش لها جفن : لانها دائما ثابتة على هدف واحد ٠٠ هو الثورة !

ولذلك عاش حبها تحت الارض ٠

ينطق بمأساتها لونها الشاحب الجميل ، وغياب بريق الانوثة في عينيها، وخطوط جسمها التي تكسرت بعد استدارة،

والضنى الذي يجرح صوتها فلا تسمع منها غير بحة الشفاعة ..

بل تشير اليها خطواتها ، وكأنها تخطو عارية القدمين في حديقة من الشوك ، لم يبق منها غير رائحة عاطرة نفاذة .

وهذا الحب هو الذي يجعل دورا تدرك مشقة كالياييف، وتدرك لماذا تهتز ذراعه وترتجف .

اذ كيف يحقق العدل بذراعه وحده ؟

ان ذراعه التي امسكت قنبلته ارتجفت وكأنها تمسك بميزان العدالة ! .

وقد صور لنا البير كامو هذه العواصف والرعود التي تهز قلوب العدميين .

فكنا نسمع صوت الانفجارات من القنابل التي يلقيها الثوار على ضحاياهم واعدائهم .. وكنا نسمع ايضا صوت الانفجارات تدوي داخل قلوبهم ، فتقطع شرايينها وتمزق اوصالها . ولهذه الانفجارات قصة طويلة دامية ، هي : قصة النهيلزم .

من رصاصات النهيلست رصاصة اطلقتها فتاة اسمها فيرا سولتش وكان ذلك في : ٢٤ يناير ١٨٧٨ .

وفيرا سولتش في السابعة عشرة ، قضت عامين في السجن لانها اتهمت بتهريب بعض الرسائل الى احد المسجونين بينما كانت تزوره ..

وقررت اخيرا ان تقتل رئيس بوليس بطرسبورج وكان

اسمه تريبوف · وكان هذا الجنرال ظل القيصر نيقولا · بل كان اكثر قيصرية منه ·

وذهبت اليه فيرا تتظاهر انها تقدم اليه التماسا ، فلم يكد يستلم الورقة التي تحملها حتى كانت رصاصاتها تنفذ الى صدره ·

ولكن الجنرال لم يمت واصيب بجراح ·

وعرضت القضية على المحكمة فبرأها قضاتها ، بعد ان كشفت لهم عن العذاب الذي تعذبته في السجن ، والعذاب الذي يلقاه المسجونون جميعا بأوامر من الجنرال المصاب · وقابل الناس حكم البراءة بارتياح ، وقابله القيصر بغضب شديد ·

واخذت العزة نفس القيصر ، فزار جنراله في المستشفى، ثم رقاه وعينه مستشارا خاصا ، وطرد المحلفين الذين تأثروا بدفاع الفتاة ، بل والغى نظام المحلفين بأكمله ·

ومنذ ذلك التحدي بين القيصر والنهيلست · وجاء جنرال آخر اسمه فيتسوف ، وكان اسمه قد ذكر في احدى القضايا الشائنة اذ اشترك في تزوير بعض الاوراق ·

واحس الجنرال ان اسمه قد يتلوث بالفضيحة ، اذ ان الشهود بدأوا يتجمعون للادلاء بشهاداتهم ضده · فقرر ان يقتلهم شاهدا بعد شاهد · واخذ يرسل اليهم رسله الذين يقتلونهم او يلفقون لهم التهم ، حتى يلقيهم في السجون ويتركهم جوعى فيموتوا ! ··

وكان الجنرال يذيع ان القيصر امر بنفسه ان يقتل هذا المتهم جوعا وذاك بالرصاص ·

وقررت جماعة النهيلست التخلص من الجنرال ، فقتله شابان ·· بالرصاص ·

وانضم الى الجماعة رجل تخصص في التمويه على البوليس ، واطلق عليه اسم الحارس ، واسمه « اسكندر ميشلوف » اشتهر بشدة يقظته ودهائه ·

كان يبني الحجرات التي يجتمع فيها العدميون ، بين كل طابق وطابق ، حتى لا يفطن البوليس عند التفتيش الى هذه المخابىء السرية ·

وكان ميشلوف خبيرا في اصطياد شخصيات لا يحوم حولها الشك ، وتمكن من ضم عدة شخصيات في القصر والجيش ·

حتى ان بعض اصول وبروفات مجلة «الارض والحرية» كان يحملها ابن احد كبار قواد الجيش القيصري ، وكان هو يشغل منصبا حكوميا خطيرا ··

وقد تمكن هذا الرجل ان يلقي الرعب في مفاصل القيصر ، فكان يجد بين صباح وآخر نسخا من جريدة العدميين التي تهدده بالقتل والدمار على مكتبه ·

وتجمعت في هذه الجماعة عناصر مضطهدة ، وعناصر تميل الى الثأر ، متعطشة الى الدم ·· واتجهت في النهاية الى القيصر نفسه ··

وحاول النهيلست قتله عدة مرات ·

فحاولوا نسف القطار الامبراطوري ·· الذي يقله · ووضعوا ثلاثة الغام في ثلاثة مواقع من طريقه الى موسكو :

اثنان في المحطات الفرعية ، وثالث في محطة موسكو ٠٠ ولكن المحاولة فشلت لان بارود اللغمين الاولين كان فاسدا ، ولم ينفجر غير اللغم الثالث الذي وضع بالقرب من محطة موسكو، ولكنه لم يصب عربة القيصر ، بل اصاب عربة ملحقة بديوانه كانت معبأة بالحقائب والحاجات !

وقدم عشرات من الشبان للمحاكمة في هذه المحاولة الجريئة !

ولم تكد تعقد المحاكمة ، حتى تسلم القيصر خطابا يطلب فيه مرسلوه ان يتنازل عن حقوقه الاستبدادية ، وان يعدل الدستور ، والا قتل ! ٠

ومضى اسبوعان ، وحدثت المحاولة الثانية لاغتياله ٠٠

وكانت في هذه المرة داخل القصر ٠ فقد تمكن النهيلست من ضم نجار يشتغل هناك ٠ وكان النجار يقيم في القصر في البناية المخصصة للخدم والعمال ٠

وقد امكنه ان يهرب الى القصر بعض الديناميت ، وان يخفيه عن اعين البوليس والرقباء ، الذين كانوا يفتشون كل مكان في القصر ٠٠ ولا يدعون شبرا دون تنقيب ٠

ولكن النجار امكنه ان يخبىء ديناميته شهرا كاملا ، وان كان هذا لم ينقذه من صداع اليم اصاب رأسه بالدوار ٠ ذلك لانه كان يخبىء الديناميت في « المخدة » التي ينام عليها ٠ وكانت رائحة الديناميت تصل الى انفه كل ليلة فيقوم ورأسه يكاد ينفجر ٠

وحانت امام النجار النهيلست الفرصة المنتظرة ، حين

دعا القيصر امير بلغاريا الى حفلـة عشاء • فوضع النجار الديناميت تحت ساعة الشتاء التي يستقبـل فيهـا القيصر ضيوفه حين يقيم المادب •

وانفجر الديناميت ساعة الاحتفال ، ونسفت القاعة ، وقتل بعض الجنود والضباط • ولكن القيصر نجا وضيوفه •

واعلنت الجماعة بيانا تأسف فيه لمقتل الجنود •• وكررت مطالبتها للقيصر بالموافقة على انشاء مجلس نيابـي يختار اعضاؤه بالانتخاب •

ولكن القيصر كان يخشى ان يفتح باب الاصلاح ، ولو قليلا ، فلا يستطيع اغلاقه بعد ذلك •• ولذلك خاطر ورفض ، وامر بنفي كل من يشتبه فيه مـن الشبان والشيوخ •• الى سيبريا •

ورفض التحدي اقصاه !

فعقد العدميون مؤتمرا عاما سريا ضم جميع اعضاء الخلايا السرية من جبال الاورال الى بطاح سيبريا ••

واختاروا سبعة وأربعين عضوا لقتل القيصر •

ونجح واحد من السبعة والاربعين متطوعا ، اذ القى جونفرزكي قنبلة على القيصر مـزقته اشـلاء ••• في : ١٢ مارس ١٨٨١ •

ولكن ••

« مات القيصر عاش القيصر » •

فقد جاء اسكندر الثالث خلفا للقيصر المقتال •

فوجه اليه العدميون نداء يطالبون فيه بالعفو عن المسجونين عفوا شاملا ، واباحة الحريات ، وانتخاب جمعية عمومية ٠

وتردد القيصر ٠ فجاءه انذار بأنه سيقتل في حفل تتويجه على عرش القياصرة ٠

واجل القيصر الجديد حفلة تتويجه عاما كاملا ، حتى يطهر روسيا من ادران العدميين ٠٠ واخذت المحاكمات تتوالى ، والمسجونين يكدسون في السجون ، وسيبريا تبتلع الالاف ، وعشرات الالاف ٠٠

وبلغ عدد السنين التي حكم بها على المشبوهين رقما يفوق الخيال ، وانتقلت الاخبار الى خارج روسيا ، فأمر القيصر ان يلقى بالمتهمين الى السجن سرا دون قضاة ودون محاكمات ٠

واظلمت روسيا !

ولم يعد الاستبداد ظالما بل اصبح مجنونا ، ولم تعد الحرية عدلا بل اصبحت جنونا ايضا ٠٠ واشتعل الجنون في كل جانب ٠

فأحرق النهيلست العاصمة عن آخرها ٠

وكان على رأس النهيلست رجل دموي اسمه نيتشائيف ٠

وكان نيتشائيف يريد ان يقود الجماهير حتى ولو لم تقبل ، وان يسوقها الى الحرية التي يتصورها على الرغم منها ٠

وقد اثار نيتشائيف الرعب حتى في قلوب المطالبين

بالاصلاح وبالثورة الاجتماعية ٠

ودفعه التلذذ من الانتقام الى اتهام طالـــب انتمى الى جماعته ، لكنه تخلف في وسط الطريق لانـــــه لـم يرض عن اساليب الجماعة الدموية ٠ فاقام نيتشائيف له محاكمة ، وحكم باعدامه ونفذ فيه حكمه ٠

واستفحل خطر نيتشائيف ، مما جعل باكونين الفوضوي يتبرأ منه ، ومما جعل كارل ماركس الاشتراكي يصدر بيانـا يعلن فيه ان نيتشائيف يحاول ان يلوث سمعة الاشتراكية ، ويدعي انه يريد ما يريدون ٠

وبالفعل صدر بيان من الدولية الاولى ، يصف نيتشائيف بانه سكير ونصاب وافاق وسارق ٠٠ وعطشان الى الدماء ٠٠

ورد نيتشائيف على هذا البيان ، بمحاولة قتل سكرتير فرع الدولية الاشتراكية ـ التي يتزعمها ماركس ـ بينما كان يعد ذلك البيان للطبع في موسكو ٠

وكان نيتشائيف يؤمن بأن العيـــن بالعين والاستبداد بالارهاب ٠

وكان يقول :

ـ ان الثوري فرد متميز ، ليست له مصلحة ولا عمل ، بل وليس له اسم ٠ كل شيء ذاب فيه ما عدا مصلحة وحيدة ، وفكرة واحدة ، وعاطفة فريدة هي : الثورة ٠

الثورة على كل شيء ٠٠

الوطن يسخطون عليه ، ويلعنونه صباح مساء ٠

ويعبر الكاتب ـ المجهول ـ نيتشرين عن هذه النقمة ، ويدعو على بلاده بالخراب ، كما تدعو ام علـى ابنها العاق بالمـوت ٠

يقول هذا الكاتب :

ـ « اي لذة ان تكره وطنك ٠ وان تنتظـر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي تتهدم فيها كل اعمدته » ٠

والعلم ٠٠ يكرهونه ويحتقرونه لانه قصر فـي روسيا على الذوات والارستقراطية ٠

والفن يدوسون ازهاره باقدامهم !

ويقول كاتب العدميين بيساريف :

ـ ما هو الفن اذا كانت الجماهير لا تتمتع بمباهجه ٠

وما هو العلم اذا كان العلم لا يتصل بالجمهور ٠

والكنيسة ٠٠ يثورون عليها لانها سلطة دينية ٠ والدولة يحاربونها لانها سلطة زمنية ٠ وهم ضد كل سلطة مهمـا كان نوعها ٠٠ في الارض او في السماء ٠

وهكذا كانت العدمية تريد ان تقطع كل ما يتصـل بك « بمقص » ٠٠ ان تنفض عواطفك العائلية ، وان تنكر الله وان تتهم المدنية بالكذب ، والتاريخ بالظلم ، والاخلاق بالنفاق ٠

وان يبدأ الانسان من الفراغ ، لا مـن التاريخ ، وان يصبح رجلا بلا ظل ٠٠ حياته بلا ماض مجيد او شائق ٠٠ وبلا مستقبل ، فلعنة الله على الامل ٠

« فلماذا لا نحرر الانسان من كل ما يصم فكره بالخجل، ونحرره من كل ما يمنعه من التنفيس عن حريته ·· حتى يتطور في جميع الاتجاهات » ·

وكاتبهم بيساريف يدافع عما سماه باستقلال الشخصية الكامل وحريتها المليئة ·

« فبدلا من الاحساس بالالتزام ، لماذا لا تكون للانسان ارادة حرة ورغبة طليقة وعاطفة جامحة » ·

وهو يقول :

ـ انني لا انظـر الى اهـداف ولا الى مثاليات ·· انما الذي يعنيني هو الحركة ·

وهو يرى الكمال في ان يتطـور الانسان وحده دون اعتماد على احد وبشكل طبيعي ودون صنعة ·

ولكن ما هو منبع هذه العدمية !

هل هو الدين ! ·

هل هي فكرة رفض كل شيء في العالم لانه شر بالطبيعة، ولان الارض كلها شرور وآثام ··

يعتقد الباحث الفيلسوف نيقولا بيردائيف ان العدمية تعود الى الارثوذكسية ·· لانها تعتمد على فكرة نفي كل شر، فالارض تسبح في الآثام ··· وان كانت قد اتخذت شكلا ميالا جانحا جامحا ·· في العدمية ·

ويرى ان العدمية تربت كالطفل اللقيط الـذي ترك على عتبة الكنائس وفي افنية الاديرة ·

ويلحظ الفيلسوف ان اكثر المفكرين النهيلست في روسيا كانوا من ابناء القساوسة ، بل وكانوا من ابناء رجال احتلوا مكانات كبيرة في الكنيسة ، ودرسوا اللاهوت وتـــربوا في رعاية الدين ٠

ومن هؤلاء : دوبرليوبوف ، وتشرنشفسكي ٠

ودوبرليوبوف ترك « يوميات » يصـــف فيهـا طفولته وصباه ٠ ويقول فيها ان التعليم الديني قـــوى عنـده روح التصوف ٠ وكانت فكرة الاثم تراوده ، وتكاد تهجم عليه من كل منفذ ، وتحاصره ٠

كانت اقل الاخطاء التي يقع فيها تعذبـــه وتؤرقه ليالي طويلة ٠

كان لا يغفر لنفسه ـ كما يقول ـ انه « اكل كثيرا من المربة ، او انه نام كثيرا » ٠

ويقص في يومياته كيف كان يحب اباه وامه ، ففقد امه فجأة ٠٠ وانتقل الى الريف ، فهلعت نفسه للمظالم والقسوة وعذاب الحياة ٠

وقد تحول الى رجال الدين ـ ومنهـــم ابـوه فوجدهم يعيشون في حالة ابعد ما تكون عـــن الدين ٠٠ يعيشون في ظلمات الشيطان ، ويستغلون الجهل والمخاوف ٠

ويكتب في يومياته : انه قرر ان يرفض كل شيء ، وان يعيش في انكار ذات ، وصيام، وانه يتمنى لو تغير وجه العالم الذي رآه حتى ولو اصبح خرابا ٠٠

ويموت دوبرليوبوف وهو لا يزال شابا ٠٠

ويأتي بعده مفكر آخر اسمه « تشرنشفسكي » ، يستمر

في الطريق الذي لم يتمه دوبرليوبوف ٠

وهو ايضا ابن قسيس ، يشغل منصب «اسقف» ويدرس الفتى التاريخ واللاهوت ، ويطلع على هيجل والعلوم الاقتصادية ٠٠ وفي النهاية يضيع بين المفكرين ٠

ويقبض عليه ذات يوم ، ويتهم بأنه كتب منشورا ووزعه على الفلاحين فيحكم عليه بالسجن ست سنوات ، يقضي بعدها اثني عشر عاما في سيبريا ٠

ويكتب « تشرنشفسكي » قصة خيالية عنوانها : ماذا نعمل ؟ » ٠

وهي قصة مليئة بالاضطراب ، فهو يصف بطله الشاب الذي ينام على المسامير ليدرب روحه على الصبر ، ولكنه في نفس الوقت لا يرهق جسده بالصبر ، بل يطلق له العنان في مغامرات عديدة ٠ ويدافع الكاتب عن الحب الحر من كل قيد، ويقول انه انما يطالب بالعودة الى الطبيعة !

والشخصية الثالثة بين كتاب « النهيلزم » هو بيساريف، وهو اشهرهم ، ولعل ذلك لانه كتب بعض الكتابات الاجتماعية وخلط آراءه العدمية برأيه في التخلص من القيصرية والظلم الاجتماعي ٠

وبيساريف ابن احد النبلاء ، وقد سجن اربعة اعوام سجنا انفراديا ٠ وكتب اغلب كتاباته في زنزانته ٠

ودعا الى تحرير الانسان من كل العقائد والروابط العائلية والاخلاق التقليدية ٠ والى خلق نوع جديد من الانسان سماه « المفكر الواقعي » ٠٠ قال عنه انه رجل آخر غير ذلك الرجل الارستقراطي الذي تعرفه روسيا ،رجل يؤمن بالعمل ،

ولا يؤمن بغير العلوم الاجتماعية ٠

وفي هذا الوقت كانت العلوم الطبيعية متواضعة تحبو خطواتها الاولى ، وكان اخطر بحث علمي هو تشريح الضفدعة ، فطالب بيساريف بتشريح جسد الانسان للبحث عن روحه !

ولبيساريف آراء غريبة في الفن ، فهو يرى انه مضيعة للوقت ، وخير للفنانين ان يكتبوا منشورا ، ولذلك فهو يعلن احتقاره لبوشكين لانه كان يراجع اشعاره ويدقق في صياغتها ٠ ويقول : « ان زوجين من الاحذية يفوقان شعر شكسبير » !

ورغم ذلك كله فقد كان يبدو على بيساريف الهدوء والاناقة والعناية بمظهره ٠

وقد لاحظ الكاتب ايفان تورجنيف ، ان كل شخصية انسانية تحتوي في داخلها على مأساة ، وان كانت لا تظهر من اول نظرة ٠

والحقيقة ان تورجنيف هو اول من اخترع كلمة « النهيلست » والنهيلزم ٠ وكان ذلك في قصته « الآباء والابناء » ، وقد صور فيها شخصية بيساريف بالذات ، واختار لها اسم « بزاروف » ٠

ويقول تورجنيف انه تصور بيساريف قبل ان يلقاه ، وقبل ان يعرف عنه شيئا « تصور ان بازاروف عملاق ضخم وحشي مضبب ، جذوره عميقة في الارض ، قوي ٠٠ لاذع ٠٠ مر ٠٠ امين ، حكم عليه بالتخريب لانه رغم هذه القوى التي يملكها لا يزال على باب التاريخ » ٠

والحقيقة ان العدميين لم يقفوا على باب التاريخ : انهم

ركلوه بأقدامهم ·· ثم دخلوا ·

فلقد عاشت روسيا في افكار مثالية نقلتها عن بروسيا ·· وكانت الصالونات الادبية مليئة بالارستقراطيين المثقفين ·· الذين يتبادلون افكار شيلنج وهيجل · وكان المثقفون يقضون لياليهم الطويلة ، يتناقشون في مثالياتهم ، ويتلذذون من اعادة الحديث فيما قالوه من قبل · وكان الرجل الانيق يبحث عن الجماليات ·

وظهر العدميون كرجال خشنين ، تستبد بهم الافكار النارية ، والثورة على الجماليات والادبيات والمثاليات ··· وكل المثل ·· ووقفت العدمية بسيفها كرجال الاساطير تضرب في كل اتجاه ·

لقد كانت الهوة كبيرة بين المفكرين والفلاحين ·

وكان الفلاحون يفورون فورات غاضبة ، ثم يشنقون في نفس الاماكن التي قاموا فيها بعصيانهم ·

وكانت روسيا كالارض البركانية تفور بالاضطراب ·· ولكنها اضطرابات منعزلة ·· متفرقة ·· حتى لقد قام الفلاحون بـ ٥٥٦ حركة تمرد وعصيان في عهد نيقولا الاول وحده · مع ان هذا الحكم لم يزد على عشرين عاما ·

ومع ذلك لم تكن هناك صلة بين الفلاحين وبين المثقفين·

والمفكرون مغضوب عليهم محتقرون مضطهدون ·

فأول كاتب اصلاحي ظهر في روسيا واسمه الكسندر راشيديف كتب «رحلة من بطرسبورج الى موسكو» ، واستوحى فيه كتاب شترن « رحلة عاطفية » وهو اقرب الى يوميات

عيسى بن هشام للمويلحي · فيه صياغة قصصية ونقد لاذع لبعض الموظفين والدولة ··

ومع ذلك كان نصيب راشيديف السجـــن جـزاء كتابه المستنير ·

واول فيلسوف روسي وضع السؤال الهام الذي يميز دائما كل الامم حينما ترفع رأسها بعد سبات عميق · فتتساءل اين نحن ؟

فقد تساءل راشيديف هذا السؤال الهام :

ـ هل روسيا جزء من الشرق ·· ام قطعة من الغرب ؟

ولكن القيصر اتهم هذا الفيلسوف بالجنون ، واودعه مستشفى المجاذيب ·

ولم يظهر في روسيا مفكر اشتبه لحظة في حسن نيته حتى اودع السجن ، او نقل الى سيبريا ·

وقد عاش الروسيون في هذه الظلمات ضحية اكاذيب متبادلة : يكذب عليهم ويكذبون عـلـى انفسهم ، كمـــا لاحظ القصاص جوجول ·

وبينما كانت الارستقراطية تتمتع في المدن ، في القصور ومقاصير الاوبرا ، ونساؤها يحملن اغلى المجوهرات ورجالها يتوارثون الثراء والاستبداد ، كان الظلم يفتـــك بالفلاحين ، والاستبداد يهدد المفكرين ، حتى لقد قال دستويفسكي :

ـ ولدت العدمية في روسيا ·· فكلنا عدميون !
ولكن ماذا بقي من العدمية الآن ؟

لقد كانت احراقا واحتراقا ·· وانطفـأت شعلتها كما تنطفىء النيازك المضطربة ·· ولهذا اشتقت اسمها وافكارها وحياتها وآلامها من ·· العدم ! ·

دمعة المرأة اثقل من حجارة الهرم .

ايفتوشينكو

طائر العذاب

الشعراء تعلم الغواية · وقد علمني ايفجني الكسندروفتش ايفتوشينكو الغواية المتعة·

صحبة

فقد كنت قبل مجيئه الى مصر ، اضع رقبتي ـ كما توضع الرقبة تحت المقصلة ـ تحت عشرات الكتب التاريخية التي تدرس تاريخ مصر في عصر المماليك · وكادت الكتب تتلف مزاجي ، واصابتني بما يشبه الغثيان « العتيق » · فزدت صمتا · ودأبت على الغرق بين دفات الكتب · وخشيت على نفسي من الغربة في القديم·فاذا بهذا الشاعر الذي اتى مصر بالصدفة، وكان من نصيبي ان اصاحبه على غير موعد ، ينجد روحي وينقلني الى عالم جديد تماما · فيه كل جدة الحلم · لان الحلم هو الشيء الوحيد الذي لن يتكرر · لا يعاد او يستعاد وكأنه غسل روحي بمطر نظيف !

وحين قيل لي : ستكون معه ، اشفقت على الكتاب الذي سأعطله ، وخاصة انني لا اعرف عن الشاعر شيئا كثيرا ، وما اعرفه عن الشعراء ان لهم نزوات ومفاجآت ·

ولكني ـ حين صحبته ـ في نواحي مصر ، اكتشفت نوعا جديدا من التعب الممتع · واصابتني من صحبته ومفاجآته متعة مسكرة واصبحت ارى الناس والاشياء والآثار والرسوم، وحتى بعض الشخصيات التي عرفتها زمنا طويلا ، بعين شاعر موهوب · وادركت ان الشاعر الشديد الحساسية مثل كرة من كرات الساحرات البلورية ، تجمع الكون في بلورة ، ملء اليدين ، ولكنها تعكس آفاق الكون المتسع ·

وقد عثرت في ايفجني ايفتوشينكو : ايضا عن شخصية ساحرة · كأنها طائر ملون جميل · متعدد الالوان · صوته فيه ملوحة الملح الرشيدي الخشن · وقامته شمعية · يسير مختالا، في نوع آخر من الاختيال غير ذلك الذي يؤدي الى الكسل · ولكنه لم يكن يسير · بل كان يرتج كما ترتج المياه بين خطين رفيعين طويلين · فلم احس ان قامته ـ او اسمع صوته المالح ـ على جسد · بل على روح شفافة ، حمراء ، زرقاء ، باهتة

البياض ، واحيانا شديدة الامتقاع ..

واول الامر ، احسست انطباعا خاطئا . انه مزيج من ايفان الرهيب ، وهاملت الحائر . من الشظف . الوحل . الجليد . القسوة والمعاناة الروحية . من جليد سيبريا ، ومن ازهار المساء الاوروبية . ولكنني بدأت اكتشف ان فيه حساسية مفرطة توشك على العطب ، كما تفسد الفاكهة ، وان فيه صدقا خاصا ، من نوع نبيل .

ولم احاول ان اسأله اي سؤال صحفي ، او حتى ادبي ، بل تركت الصدفة تكتب معي هذا التسجيل « الذي اختصره حتى الاقتضاب » . ولكنني وددت ان اشرك معي القارىء في صورة انطبعت بها عن هذا الشاعر المتدفق ، الذي زار مصر لاول مرة ، والذي قال انه سيعود الى مصر غير مرة .

شاعر احب مصر كما يحبها اطفال القرى ، وتلاميذ المدارس .

حبا بريئا مباشرا .

وحين اقترحت راجيا ان يرى مسرح الجيب ، ليشهد مسرحية ناظم حكمت « ا.ب » ، وكنت رأيتها ـ بالصدفة ـ قبل وصوله بليلة واحدة . فأخذت بالتمثيل والايقاع والاخراج . ووددت ان يرى الممثلين الشبان عندنا ، فليس خيرا من الشباب ليقنع الشباب قال ، وهو احيانا يتكلم بطريقة صارمة، يظهر فيها صوته الملح ، وتكاد تظن في لهجته كثيرا ـ او قليلا ـ من الجفاء :

ـ انا وحدي مسرح بأكمله .

وظننت به الغرور . وقد ظن ذلك بعض الذين التقوا به عابرين ، او بعض الذين رحبوا به بكلمات معسولة ، واذرع مقفلة ! ولكنني اكتشفت فيما بعد انه تعود ان يطلق آراءه على

طريقة الشعراء ، احكاما مرسلة ، كأنها مطـــلع قصيد ، او خاتمة نهاية ، كأنه يلخص خبرته او معاناته ، في اقل الكلمات عددا ، واثقلها بالشجن · وقد تأكد لي انه من الشعراء القلائل الذين عرفتهم ، ويتصرفون في يومهم وليلهم تصرف الشعراء · فبعض الشعراء ـ الذين تعرفونهم ـ تحس ان لهـم ساعات ارسال شعرية ، وبقية ساعات يومهم يصبح الواحـــد منهم موظفا او مهرجا او مدير دعاية لنفسه ! لكن ايفتوشينكو يعيش ويتنفس الشعر · فهو يعلق على اي شيء صغير يراه بعينه، بنظرة شاعرية او صورة شعرية · طفايـة السجاير مثلا ، وصفها على البديهة بأنها « مقبرة الافكار » وهو يتحرك وثبا كالطيور التي لا تطير ، واحيانا كالمثلين الذائعي الصيت ، اي انه ينظر وينظر اليه ، ويشهد ويشاهد ، ولم يسأل عن ثمن اي شيء ، ولم يذكر شيئا يملكه غير بعض اللوحات المشهورة لبعض اصدقائه الرسامين ·

وتأكد لي أنه كان صادقا ، حين قال انه « مسرح وحده » لانه لم يذكر خلال عشرة ايام كاملة مسرحية واحدة ، بينما لم ينقطع عن الحديث عن الشعر والرسامين بالذات · واستنتجت انه يعيش في عالم الكلمات والصور فقط · اي عالم الشعـــراء والرسامين · وكان حديثه عن شعراء روسيـــا بالذات حديث الدارس المحب المتعمق · وقال انه يحفظ ٥٠ الف بيت من الشعر الروسي القديم والجديد · وان له ذاكرة ذات شهيـة في حفظ الكلمات ، وولع بتقليب المعاني ، واشتقاق الالفاظ ، ونحتهـا أو تحريفها · وحين ذكر انه سوف يتعلم العربية قال : لانـــه وجد في الشعر العربي الذي سمعه شبها « غريبا » ـ من ناحية الايقاع ـ بشعر جورجيا ، أخصب اشعار روسيا ·

وكان ايفتوشنكو قد سمـــع من صـــلاح عبد الصبور قصيدتين ـ همسا ـ ظل يعلن اعجابه بهما ، مرات متتالية، كما انشد له احمد عبد المعطي حجازي قصيدة « السيرك » وكانت عيناه تغيمان بزرقة غريبة ، حتى خيل الى ان دموعه مثل عينيه زرقاء ، ولهذا فهو لا يبكي ابدا ·

وقد التقط من العربية « شكرا » ، وكلمة « دمار » لانهـا

كلمة في ترجمة أقوى قصائده وحين سمع من شعرائنا المصريين كلمة « القافية » سأل عنها ، ثم قال ان الشعراء هم « المافيا في القافية » اي ان الشعراء هم عصابة القافية في العالم ٠

وهو يعيش مع الشعراء القدامى والجدد ، كأنهم الى جواره ، وهو يجلس على حجر بوشكين ، ويسند رأسه على صدر مایاكوفسكي ، ويعطي يده الصغيرة ليد باسترناك ٠

وقال ان بوشكين هو استاذ الاساتذة ، وانه أعظم شعراء روسيا قاطبة ، وان دمه دما افريقيا ، كما انه ـ هو دمه خليط بدماء الروسية وغيرها ـ وكان يحكي عن بوشكين أقاصيص عدة ، كلما جاءت المناسبة ، عن قصته مع القيصر ، وايفتوشينكو يحفظ كل الاقاصيص والنوادر والذكات والفظاعات التي حدثت لشعراء روسيا ، وهو يعرف المغمورين والمشهورين ، وهو يتذوق القديم والجديد بلا تخصيص ، واحيانا ينقب عن المغمورين في عصور قديمة ، وحكى عن أحد الشعراء المعاصرين لبوشكين ، فقال انه كان أقل منه شهرة وشأنا ، ولكن بوشكين القى عليه الظل ، وفهمت انه ينقب في اشعار روسيا عن اي شعر جيد وصادق ٠ وانه يكره المدارس النقدية ، وكثيرا ما ردد انه لا يفهم مدرسة الواقعية الاشتراكية ، وانه يضيق بتقسيمات المذاهب من سوريالية أو انطباعية أو غير ذلك ٠ فهو يبحث عن الاجود والأفن والاصدق ، من أي بلد أتى فأنشد ٠

وايفتوشينكو يتذوق من الاجانب اشعار رامبو الفرنسي ، ويعجب بقصيدة « القارب الثمل » ، وانتقل فجأة ليقول انه يحب وجه باسترناك حبا باهظا ، لان وجهه يبدو عليه أنه ثمل من غير خمر ٠

وهو يعجب كذلك بدايلن توماس ، وهو شاعر فردي شديد الفردية ، ولكنه سامي الرقي ٠

وتستطيع ان تلمس من حديثه انه ينجذب الى الشعراء المحترفين ، ويكره الاحتراف في أي شيء ٠

وقلت له انني أحب لوتريامون ، وهو الشاعر الفرنسي الذي يقول ما معناه ان نقطة من دماء الشاعر « أو المفكر » لا تمحوها مياه البحار ٠

وقال ايفتوشينكو :

ـ غريب ٠ لقد كنت أفكر في معنى مقارب ٠ بعد ان زرت الهرم ٠ فطاف بخاطري معنى يقول : ان دمعة المرأة أثقل من حجر الهرم ٠

وابتسمت من هذا التصريح النابليوني ! حين قال نابليون لجنوده : ان اربعين قرنا من الزمان تطل عليكم ٠

وبدأت صورة الشاعر تنكشف لي ٠

انه يحب الرسوم والحكايات والكلمات ، فماذا سيقول عن آثار الفراعنة ، وعن مصر القديمة ، وأحيائنا الشعبية ٠

وذهبنا الى أسوان والاقصر ٠ ولم يحمل معه حقيبة ما ٠ ولا جواز سفر ٠ ولم يشرب القهوة أو الشاي ٠ وكان يفطر على عسل النحل والبيض غير المطبوخ ، وكان يستأذن لينام ربع ساعة ، ليعود كأنه قد نام ساعات عديدة : ونكت أنيس منصور كالعادة قائلا ، حين سئل اوسكار وايلد عند وصوله الى امريكا :

ـ هل لديك ممنوعات ؟

فقال :

ـ لست أحمل غير عبقريتي ٠

واصبح مسافرنا بلا متاع اخف المسافرين واظرفهم ، بضع حبوب الادوية ، فرشاة اسنان ، ماكينة حلاقة ٠

واستغرق في النوم على صوت الانتينوف · وحين وصل الى مطار اسوان فاجأنا بنشاط مفاجىء :

ـ الى السد العالي فورا ·

وقف على الستة عشر مترا التي تتجمع فيها انفاق ثاني نهر في العالم ، واندفعت المياه امامه · وتركناه بين الآلات الضخمة والروافع الحديدية ، والضجة العالية · وقال فجأة « ايفا » :

ـ سأذهب الى الروس ·

وبعد نصف ساعة ، كان يصعد جسم السد العالي ، ويبدو انه طلب ان ينزل الى احد الانفاق المعتمة ·

وعاد سعيدا ·

وقدم لنا صديقين ·

وقال ان احدهما صديق له من ايام الصبا ، من بلدته سيبريا · وقال الصديق انه حاول ان يحضر آخر مرة احدى حفلاته في موسكو ولكنه لم يجد مكانا ·

فأسعده ان يرى الشاعر بنفسه في اسوان واسعد الشاعر ان يرى صديقه ، وتواعدا على المساء ·

وقال ان الروس قالوا له انهم يحبون المصريين لانهم متوقدو العاطفة ، مفتوحو الاذرع ، وانه خاض في احد الانفاق ، فابتهج من طرطشة الوحل ، وقال ان الوحل صورة شاعرية روسية تخصص فيها الادب الروسي ·

واروع قصة التقطها في جولته السريعة بين الروس الذين يعملون حين حكى له احدهم ان عاملا مصريا « من

عمال التراحيل » الذين يتنقلون من مكان الى آخر ، كان قد دعا احد الروس الى وليمة غـــداء بمناسبة عيـــد ميلاده ، فقال له :

ـ اعطني عنوانك ٠

فقال له العامل :

ـ ليس لي عنوان ٠

واجتمعت الحفلة تحت النفـق ، واحضـــــر المصري « البسيط اقتصاديا » اروع ما لديه من اطعمة ومشروبات ٠

واخذ ايفتوشينكو يهلل لهذه القصة ٠ كأنما حدثت معه٠ وادركت انه يبحث وراء الارقام والآلات والجهود العظيمة التي ترفع السد ، عن تفاصيل العواطف ، والانسان والاشجان او دائما هو ما يبحث عنه ٠

وجاء يقول :

ـ ألم أقل لك ، ان بعض الارقـــام والاحصائيات غيـر دقيقة ؟

وكان ايفتوشينكو قد قرأ بعض الارقام عن السد العالي، ويبدو ان هذه الارقام قديمة ، ادخلت عليهـــا التعديلات في الواقع ، ولم تعدل في النشرات ، واردت ان احول الحديث :

ـ أليس غريبا الا يقبل الشاعر قدرا من الخيال ٠

فقال ، مرة اخرى ، وكأنه يدلي بتصريح :

ـ انما الشعر هو الدقة ٠

فقلت :

ـ والكمال هو الكسل ٠

وعاد يذكر بوشكين ، فقال انه يقول :

ـ الشعر هو الكتابة بالحبر الابيض ٠

وتفتحت شهيته ، عند السد ، على التعرف بدقة على مصر ، ان « يحتسيها » كما قال ببطء ومزاج :

فاذا بالاقصر مفاجأة ، كادت تخرجه عن صوابه ، ككأس تجرعها على الطريقة الروسية ٠

ففي وادي الملوك ، كانت الشمس واضحة ، والحر لافحا ، وفيالق السياح مبهورة كأنها في عالم سحري ، زادت الشمس من انفتاح افواهها ، مع ان الدهشة تعقد الالسن : وفي الاقصر اكتشفت نوعا من العظمة المؤلمة ، هي عظمة هؤلاء الفراعنة ٠

واخذنا نصوره بين الآثار ، ومع لوحات الراقصات المعروفة ، ووقفنا عند الالوان الخالدة التي ما زالت باقية ، وفي مقبرة سيتي الاول ، لم يستطع الشاعر ان يتحرك ، امام صورة السقف الازرق المليء بالنجوم ، والالهة «توت» الطويلة الاذرع جدا ، الدقيقة الجسم جدا ، والتي كان الفراعنة يعتقدون انها ترفع السماء بيديها ، وتشرق الشمس من فمها، ثم تغرب على حجرها ٠

واحسست ان ايفتوشينكو قد تعب ٠

وقرر ان ينام مبكرا ، وبطريقة مفاجئة ايضا ٠

انه ينهل ولا يحتسي من مصر التي قال لي انها اعقد من روسيا ، واصعب ٠

وبقدر ما كان يعجب بالفن الفرعوني القديم جدا كان يطلب ان يرى الفن الحديث جدا ، بل لقد طلب بعد ان رأى المتحف ان يذهب فورا الى معرض لرسام حديث ، وكان قد شهد ـ بالصدفة ـ لوحة للرسام الشاب صالح رضا ، فأعجب بها ، وطلب مقابلته ، وحين التقى بالفنان صلاح طاهر، ابدى اشد الاعجاب ببعض اللوحات ، وكان حين يعجب يجلس ، وحين يضيق يقفز واقفا ٠

وجلس ايفتوشينكو يقول ان اصدقاءه جميعا من الرسامين ، وانه يحب الرسامين المغمورين او المشهورين على حد سواء ، وانه صديق لماكس ارنيست ، وان لديه لوحات من بيكاسو وارنيست وجان ميرو ، وانه يعشق شاجال ، وقال انه كان يدع الرسامين يرسمون في الصباح ، وكان ينام في مراسمهم بالليل ، وان مفاتيح المراسم تفتح الاقفال الصدئة ٠ وقال ان الحب هو رائحة الاواني الفخارية التي يضع فيها الرسامون ريشهم ، وانتقل الى مرسم صلاح طاهر ، فانطفأ النور علينا ، واضاء صلاح طاهر الشموع ، وقال ايفتوشنكو انه يكره قراءة الشعر في ضوء الشموع ، واخذ يختار عناوين واسماء لبعض لوحات صلاح طاهر ٠

وكان ايفتوشنكو احيانا ، يراجع آراءه في الصباح ، وكانه يفيق ، وقلت له ان شاجال رائع حقا ، وروسي تماما ، ولكنه من اجمل من يصور الحمير البيضاء ، وقلت له ان عندنا رساما هو محمود سعيد ، وكان مشغوفا بتصوير الحمير ايضا ، وتوفيق الحكيم من المدافعين عن الحمير ، وحين ذهبنا الى الاسكندرية ، ورأى لوحات لمحمود سعيد ، وخاصة تلك اللوحة المعلقة في متحف البلدية ، وتصور بنات بحري ، وبائع العرقسوس ، انخطف قلب الشاعر ، وذهبنا الى معرض محمود سعيد ، الذي تصادف انه يقام في الاسكندرية الآن ، وقال ان الرسام محمود سعيد من العباقرة القلائل في العالم ، واخذ يطنب في المديح ، وكان صادقا ، فقد ذهب الى مرسم سيف وانلي ، فأعجب ببعض الرسوم ولكنه لم يعلق عليها ـ ويبدو ان لوحات وانلي الرائعة بدت له فيها بعض

الذكهة الاوروبية ، وادركت ان ايفتوشنكو يبحث عن مصر في عيون رساميها وفي حوانيتها القديمة وشوارعها الضيقة .

وكانت زيارته للقاهرة القديمة اثباتا لما احسسته من ظن ، فقد سرنا عبر مصر القديمة ، فاذا به يجوس فيها كأنه صبي في غابة بها عشب ، سعيدا مبهورا ، واخذ يقول ان مصر عوالم متعددة ، وقال كأنه يئن وحين يتألم ، يبـــرز الملح في صـــوته :

ـ رائـــع .

ثم سكت .

فعرضت عليه ان يدخل لزيارة الحسين ، ودخلنا ، ولم الاحظه ، فقد شدتني حركة المرور حول القبر ، وروع الشاعر بالنقوش ، ولم التفت اليه .

فقد كان امامي ، رجل غليظ الوجه ، لو خرج من المسجد لظننته قصابا ، وكان يقبل الرخام قبلة متهدجة مبللة بالدمع .

ومررت بيد كبيرة لأب ، تقود يدا صغيرة جدا لطفل ، نحو « خرم » صندوق النذور .

وقال ايفتوشنكو وقد ايقظه الركوب في العربة :

ـ سأصبح صوفيا . انا صوفي .

ثم مرت العربة بالشوارع الضيقة ، ومررنا على اسبان يشترون ، وفرنسيات يشترين الحرير الدمشقي المزركش بوهج الشرق ، الملطخ بنيران مجوسية !

وكان ايفتوشنكو غارقا صامتا ، ثم قال :

ـ ان الادب الرديء يفسد العلاقات بين النـــاس وبين

الشعوب ٠

وسكت قليلا ليقول :

ـ ان اردأ الوان الادب هو الادب المحلى بالسكر ، مثل افلام التليفزيونات « الافلام التي تضع المساحيق علـــى وجه الحياة » ٠

وقـال :

ـ ان الآلام وحدها هي التي تربط البشر ٠ هل تعلم لماذا أحب الاخوة كرامازوف ؟ لأن فيها آلاما عاتيـــة ، وشقاوات مـــريعة ٠

وخلفت ورائي صورة القبلة المبللة بالدمع مـــع جزار سابق ، وتائب لاحق ، وصوت الشفاه المهتزة من الوجد على الرخام الابيض اللامع ٠

اي نوع من الشعراء ، هذا الشاعر وما هي هذه الآلام؟

وبدت لي جملة كأنها شعار مضحك : لكل حسب آلامه ، ومن كل حسب احلامه ٠

ولكنني كتمت الصورة لسخافتها ٠

وغاب عني ايفتوشنكو، ومرت السيارة بالمناظر اليومية، فلم يعبأ بها ، كما تمر المناظر امام بائع متجول ، وضع قفصه على الارض بعد تجوال طويل ، واستلقى غير مكترث ، بما يمر امـــامه ٠

واخذت اتذكر ما قاله لي عن بوشكين ان حريتنا خفية ، وفي كل البشر حريات خفية ، واخذت استعيد ما كان يقوله عن ابيه الروحي ، باسترناك ، وكيف قضى معـــه اربعة ايام يشربان ليل نهار ، وكيف وكيف ٠٠ وكيف ٠

اقاصيص لا تنتهي بحكايتنا ، ولكنهـــا تستمـر في الذاكرة ، وتبقى تحت الجلود ٠

فأي شاعر هذا الشاب الذي جاء ، ثم اختفى ٠

واي عذاب هذا الذي يتحدث عنه ، حتى يقول :

لم اعد اطيق مزيدا ٠

ولا احتمل الاقل ٠

ان في العذاب لضعفا ٠

وفي العذاب عذوبة ٠

فيا للعجب !

الفهرس

الغاضبون	٣
مقدمة عن السلطان والانسان	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
الارهاب والتكنولوجيا	١١
الشمس مجانا	٤١
تسقط البساطة	٥٩
الحب بين الحرام والعيب	٨٥
الفوضوي والقيصر	٩٧
الفاشوش	١٣١
مدرسة الثياب الممزقة	١٤٣
امرأة ذات سيادة	١٥٧
الناس يتغيرون	١٧٧
العدميون	١٩١
طائر العذاب	٢٠٩

مطبعة الرأي الجديد
خندق الغميق - شارع نايف تللو
تلفون ٢٣٠٠٣١

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 071971046